وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصّديق بن يحيى
كلّية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي

عنوان المذكّرة

الشَّتَاتُ وسِيرَةُ الإنْسَان فِي رِوايَةِ "طُفُولَتِي حَتّى الآن"

لإبراهيم نصر الله

مذكّرة مكمّلة لنيل شهادة الماستر في اللّغة والأدب العربي

تخصّص: أدب عربي حديث ومعاصر

إعداد الطالبة: يسرى بحشة

إشراف الدكتور: عبد العزيز شويط

لجنة المناقشة :

د/ فريد عوف..... رئيسا

د/ عبد العزيز شويط.....مشرفا ومقررا

د/جميلة بورحلة..... مناقشا

السنة الجامعية2023/2022

بسم الله الرّحمن الرّحيم

"رَبِّ اشْرَح لِي صَدْرِي

ويَسِّرْ لِي أَمْرِي

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي

يَفْقَهُوا قَوْلِي "

إهداء:

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى كلّ من علّمني حرفًا.

في هذا المشوار الطّويل كالسّنين، القصير كالذّكرى.

إلى من منحه الله العلم وحبّ نشره، إلى من فتحت عيني على مكتبته الغنية،

فأخذت منه شغف القراءة.

إلى "أبـــــي"

ثمّ إلى "أمّـــــي" كلّ رسائل هذه الرّحلةِ الخرافيّة

إلى من تحملان من الصّفات أندرها، حب الخير للنّاس.

إلى الأستاذتين: "سعاد" و" سامية"

شكرا جزيلا.

إلى كلّ من ساندي وتمنّى لي الخير أهذي هذا العمل.

"شكر وعرفان"

يقول تعالى في التّنزيلِ الحكيمِ:

"لَئِـنْ شَكَرْتُـمْ لَأَزِيدَنَّكُـمْ"

الحمد لله العليّ العظيم الذي أفاض عليّ من نعمه وجميل عطائه، بأن هداني لأن أسلك طريق العلم وأنهل منه ووفقني لأبلغ هذه المرحلة وأنجز هذا البحث المتواضع.

الشّكر للدّكتور "عبد العزيز شويط" الّذي كان موجّها لخطوات العمل ومقوّما ومقيّما له.

مقدّمـــــة

مقدّمة :

لطالما كان الإنسانُ صانعَ سيرتِه، وسائرًا يصنعُ المعرفةَ والحياةَ، كيف لا وهو الذّي يخوض معاركَ عدَّة في سبيل الوجودِ، معاركَ قد يخسرها أحيانا لكنّه منتصرٌ دائمًا إذا نظر أمامَه، فأبصر صورتَه قبلَ التّشكُّل، وحينَ بلغ اكتمالَه، أو ظنَّ ذلكَ، أبدعَ بأسلوبِه، وأطلقَ العنانَ لخيالِه وقنّنهُ وتفنّنَ في طبعِه بالمعرفَةِ، دونَ التنكُّر لزمانِه ومكانِه، ثمّ دوَّن نفْسَه فيهِمَا جامعًا بينهمَا، وهذا مقْصدُ "إبراهيم نصر الله" الّذي جمع في روايته "طفولتي حتّى الآن"، حيوات عدَّة لشُخوصٍ لا يكفُّون عن المسيرِ في وطنٍ من الشّتاتِ، وطنٍ سائرٍ في الضّياعِ والتّخبّطِ والمتَاهِ.

ورصدَ من خلالِ ذلكَ سيرةً للإنسانِ الفلسطينيِّ، هيَ الأعظم في تاريخِهِ على الإطلاقِ، وكلّ ذلكَ من خلال سيرته الذّاتيةِ بمعيّة سِيرِ الشّخوص الفاعلينِ في حياتِهِ، سيرِ أناسٍ تشتّتوا وأمكنةٍ تبدّدتْ في الحضورِ والغيابِ.

هذهِ الرّوايةُ الّتي تحتضنُ ساردَهَا وشخصياتهَا على مدَى ستّين عامًا، وتختصرُ سيرةَ شعب بأكمله، وسيرة مكانٍ، بمواصفاتٍ فنّيةٍ إبداعيّةٍ جديدَةٍ ومختلفَةٍ.

وفي هذه الدّراسةِ انطلاقًا من عنوانِها:

"الشّتاتُ وسيرةُ الإنسانِ في روايةِ طفولَتي حتَّى الآن"، كان اهتمامُنا بسيرةِ الإنسانِ الفلسطينيّ من خلال سيرة "إبراهيم نصر الله"، وسيرِ الأشخاصِ المحيطينَ بهِ وما يعيشونَه من شتاتٍ وضياعٍ.

ولذلك دارتْ إشكاليتُنا في مدارِ سيرةِ الإنسانِ الفلسطينيّ المشتَّتِ في المكانِ والزَّمانِ من خلالِ سيرةِ الرّوائيِّ –أوّلًا– ثمّ تمثُّلات الآخرينَ بسيرهم وتفاعلاتِهم.

ولذلكَ حاولنا الإجابةَ عن مجموعة من الأسئلةِ الّتي تبلورت في أذهاننا وهيَ:

1- ما المقصودُ بالشّتاتِ في الأدبِ، وأدبِ الشّتاتِ وتداخلِه مع المنفَى؟

2- ما المقصودُ بالسّيرةِ وأدبِ السّيرةِ وروايةِ السّيرةِ الذّاتيةِ؟

3- كيفَ تمثّلَ الشّتاتُ في روايةِ "طُفولَتي حتَّى الآن" نظامًا خطابيًّا ومعرفيًّا متكاملًا تتخلّلُه أسئلةُ الهويّة؟

4- كيف تمثّلَ المكانُ الأصليُّ (الغائبُ) والمكانُ الطّارئُ (الحاضرُ) في الرّوايةِ؟، وما الصّور التي اتخذتها المقاومةُ في الشّتاتِ؟

5- كيفَ تجسّدت سيرةُ الإنسانِ في الرّوايةِ من خلال سيرةِ "إبراهيم نصر الله"، وسيرةِ الشُّخوص الفاعلين، وسيرةِ الشّعبِ الفلسطينيّ، وسيرةِ الأمكنةِ الحاضرةِ (الطّارئة)، والغائبة (الأصليّة)؟

- **سببُ اختيارِ الموضوعِ:**

لقد اخترنا هذا الموضوع لدراستنا رغبةً، فمن القراءة الأولى للرّواية شدّتنا عناصر السّيرة في الشّتات بخيالٍ بديعٍ منطلقٍ من أعماق الرّوائيّ الّذي أبرزَ طفولَتَه، ومراحلَ حياتِهِ وأحلامهِ ومعارفه وتجاربه في روايةٍ حافلةٍ بالتّفَاصيلِ، بسيطةِ العرضِ، تتمثّلُ رحلةَ شعبٍ هُجِّر من بلدِه واقتُلِعَ من أرضِه فعرف الشّتاتَ وحاورَهُ، وهذا سبب كفيلٌ لاختيارنَا، زدْ على ذلك انصراف الدّارسين عن موضوعِ الشّتاتِ في ربطه بالسيّرةِ، وهذا ما رأينَا فيه شيئًا من الجِدَّةِ.

- **صُعوباتُ الدّراسةِ:**

لعلَّ أبرزَ صعوبةٍ واجهتنَا –ونظنُّها الوحيدة– تمثّلت في ضبطِ جوانب هذا الموضوع الواسع المتشعب بعلاقاته المختلفة.

- **منهجُ الدِّراسةِ:**

اعتمدنا في دراسَتِنا هذه على المنهجِ الوصفيِّ بدراسةٍ تحليليَّةٍ، لأنّه الأنسبُ لطبيعةِ الموضوعِ، فالمنهجُ الوصفيّ في موضعِ عرضِ مفاهيم السّيرةِ والشّتاتِ وما يرتبطُ بهمَا، والتّحليلُ بُغية تحليلِ تجلّيَاتِ فنِّ السّيرةِ والشّتاتِ في الرّوايةِ .

- **أقسامُ الدِّراسةِ:**

– قسّمنا دراسَتنا إلى فصلينِ :

جاءَ الفصلُ الأوّلُ حولَ الشّتاتِ والسّيرةِ في الأدب، يضمّ مبحثين، تحدثنا في الأوّل عن الشّتات في الأدب، حيث تطرقنا إلى مفهومه في اللّغة والاصطلاح، وإلى مفهوم أدب الشّتات وخصائصه، وكذلك علاقة الشّتات بالمنفى من حيث التّداخل والاختلافِ.

وتحدّثنا في الثّاني عن السّيرة في الأدبِ، مُستعرضين مفهومَهَا في اللّغة والاصطلاح وعلاقَتَها بالترجمة الذّاتية وأدبِ المذكّراتِ والفرقِ الماثلِ بينهم.

ثم تطرّقنا لأدبِ السّيرة ومفهومِه وخصائصِه، وواقعِ حياتهِ قديما وحديثًا، وكذا أنواع السّير في الأدب ومفهوم رواية السّيرة الذّاتية.

أمّا الفصل الثّاني فكان فصلًا تطبيقيًّا تحتَ عنوان "تمثّلات الشّتات وبروز السيّرة في رواية طفولتي حتى الآن لإبراهيم نصر الله"، وضمّناه هو الآخر مبحثين، تطرقنا في الأول للشّتات وتمثّلاته في الرّواية بعدّه نظاما خطابيا معرفيّا متكاملا فيها تحيطه أسئلة الهوية، وكذلك تطرقنا للمكان أصليّا (غائبا) وطارئا (حاضرا)، ولصور المقاومة في الشّتاتِ.

وكان المبحث الثّاني حول سيرة الإنسان في الرّواية من خلال سيرة الروائيّ وسيّر الشخصيات المختلفة، ومنه سيرة الشعب الفلسطينيّ، وفي الأخير من خلال سيرة المكان الحاضر والمكان الغائب وعلاقتها برسم سيرة الإنسان عموما في الرّواية.

وفي الختامِ حوصلةٌ تضمّنت أهمّ النّقاط التّي توصلنا إليها من خلال عرضنا للشّتات وسيرة الإنسان في الرّواية، ثم ملخصٌ للرّوايةِ وتعريف موجز بالرّوائيّ.

وقد اعتمدنا مراجع عدّة منها:

- "في الممر الأخير سردية الشّتات الفلسطيني (منظور ما بعد كولونيالي)" لرامي أبو شهاب.
- "فن السيّرة الذاتية" لعبد العزيز شرف.
- "فنّ السيرة" لإحسان عبّاس.
- "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث" ليحي إبراهيم عبد الدّايم.
- "عندما تتكلم الذّات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)" لمحمد الباردي.
- رواية "طفولتي حتى الآن" لإبراهيم نصر الله.

الفصلُ الأوّل: الشَّتَاتُ والسِّيرَةُ فِي الأَدَبِ.

أوّلا/ الشّتات في الأدب.

ثانيا/ السّيرة في الأدب.

أوّلا: الشّتاتُ في الأدب.

لقد بدأ الأدب العربي يحاور إشكالية الشّتات حوارا جدّيا مباشرة حين صار واعيا بما حلّ بالفلسطينيّين، فالنكبة بتفاصيلها طرحت أسئلة تعلقت بالهوية، وجعلت الكتّاب يحاولون التعبير بصدق عن النكبة وعمّا بعدها، فكان مفروضا عليهم الوقوف عند الشّتات كأبرز مخلّفاتها.

1. مفهوم الشّتات في اللّغة والاصطلاح:

أ. في اللّغة:

حفظت المعاجم العربية مصطلح الشّتات بمعنى الفُرقة والتّفريق، إذ ورد في "لسان العرب": "الشَّتُ، الافتراق، والتّفرِيق: شَتَّ شعبُهُم شتًّا وشَتاتًا، وانشَتَّ وتَشَتَّتَ أي تفرّق جمعُهم، ويقال: "أخاف عليكم، الشَّتات أي الفُرقة"[1].

كما ورد في كتاب "العين": "الشّتُ مصدرُ الشّيء الشَّتِيتِ، وهو المتفَرِّقُ، كما وتقول: شَتَّ شعبُهم شَتاتًا وشَتًّا أي تفرّق جمعُهم، قال الطِّرماح: شَتَّ شعبُ الحيّ بعد اَلْتِئام"[2].

وكذلك أوردها صاحب "القاموس المحيط": "شَتّ يشِتُّ شَتًّا وشَتاتًا وشَتِيتا: فرّق وافتَرق، كانْشَتَّ وتَشتّتَ واسْتَشَتّ وشتّتهُ الله، وأشَتّهَ، والشّتيتُ: المفرَّقُ المشتّتُ، ومن الثّغر: المفَلَّجُ، وقوم شتّى: أي فرقا من غير قبيلة، وجاؤوا أشتاتَ شتاتَ أي أشتاتا متفرّقين"[3] وهو ما يشترك فيه المعجمان معا .

---

[1]- أبو الفضل جمال الدّين محمد بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ط، د س، المجلد الثّاني، مادة شَتَتْ.

[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي و ابراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، د ب، دط ،د س، ج 6 ، مادة شَتَّ.

[3]- مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2008م، مادة شتت.

أما في "معجم اللّغة العربية المعاصرة": "شَتَّتِ الأشياء: تفرّقت، شتّتِ السّفينة بفلان: بعُدت به، شَتّ بقلبه الوجْد: أثاره وبلبل تفكيره"[1].

كما ورد مصطلح الشّتات في القرآن الكريم نحو قوله تعالى: "ليسَ عليكُم جُناحٌ أن تأكُلوا جميعا أو أشتاتًا" (سورة النور الآية 61)، ومعنى أشتاتا هنا "مُتفَرِقين، جمعُ شت نزل فيمن تحرَجَ أن يأكُل وحدهُ، وإذا لم يجد من يُؤاكله يترك الأكل"[2]، ونحو قوله تعالى: "يومئذ يصدرُ النّاسُ أشتاتا لِيَروا أعمالهم" (سورة الزلزلة الآية 06)، أي "متفرقين فآخُذُ ذات اليمين إلى الجنة وآخُذُ ذات الشّمال إلى النار"[3]، ونحو قوله تعالى: "تَحسَبُهُم جميعا وقُلُوبُهم شَتَّى" (سورة الحشر الآية 14)، أي "متفرقة"[4].

ومنه فما ورد في المعاجم العربية حول الشّتات وأثبتته الآيات القرآنية يحيل إلى مفهوم عام مفاده أن الشّتات من التّفرقِ والتّبعثرِ والتّمزقِ، وهذا ما قال به القدماءُ والمُحْدَثُون.

ب. في الاصْطلَاحِ:

لم يخرج معنى الشّتات في الاصطلاح عمّا سطَرَتْهُ المعاجمُ العربية ولم يبتعد عن كونِه: "مظهرا وممارسة كونية قديمة قدم الإنسان ذاته، فقد اختبرته جماعات بشرية وشعوب منذ فجر التّاريخ، ولا يزال قادرا على صوغ خريطة الوعي البشري ولا نبالغ إذا قلنا إنه يمثل مكونا أساسيا من بنية الإنسان الثقافية فرديا وجمعيا، نظرا إلى ما ينطوي

[1]-أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2008، 1924هـ، مادة شتت.

[2]- جلال الدّين محمد بن أحمد المصلي وجلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر السّيوطي: تفسير الجلالين (مع أسباب النّزول)، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، د س، ص 474.

[3]- المرجع نفسه، ص 807.

[4]- المرجع نفسه، ص 727.

عليه من آثار وتداعيات عميقة"[1]، فالشّتات يولد مع الإنسان ويستمر معه سواء عاشه أو لم يعشه ويتحدد بـ "هجرة مجموعة بشرية، وانتشارها وعيشها خارج موطنها الأصلي"[2]، لتصبح مجموعة بشرية مهاجرة أو مهجّرة بسبب الاستعمار من أوطانها في مناطقَ مختلفة من العالم.

ثمّ إن مصطلح الشّتات "ينقل فكرة السكان العابرين للحدود الذّين يعيشون في مكان واحد مع الاستمرار في الحفاظ على العلاقات مع أوطانهم كونهم "هنا" و"هناك" على حد سواء"[3]، وهنا إحالة إلى افتراق الأشخاص عن أوطانهم الأصلية وانتقالهم إلى أوطان أخرى يعيشون فيها على أمل العودة لا يستطيعون قطع أواصر التّرابط معها.

ولأنّ المعنى اللّغوي للشّتات لا يخرج عن دلالة الفُرقة والتّبعثر والتّمزق، وهو ما نجده في أغلب المعاجم القديمة والحديثة، نستطيع استنتاج الدّلالة الاصطلاحيّة "التي تدل على شعوب مهاجرة أو مهجّرة من أوطانها في مناطق مختلفة من العالم ليصبحوا مشتتين فيها كمجموعات متباعدة تحاول التنسيق فيما بينها من أجل العودة"[4]، ويكون بذلك الشّتات حافزا وجامعا.

وقد ارتبط معناه في المفهوم الغربي باليهود وتشتتهم خارج فلسطين فالمتتبع لهذا المصطلح يلحظ "حضورا عميقا للأثر اليهودي في صوغ المفهوم العام للشّتات أبستمولوجيا من منطلق النّموذج اليهودي، بوصفه نموذجا

---

[1]– أحمد جميل عزم وآخرون: قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني (في الهوية والمقاومة والقانون الدولي)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015، الجزء الأول، ص 557.

[2]– رامي أبو شهاب: في المرر الأخير سردية الشتات الفلسطيني (منظور ما بعد الكولونيالي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،ط1، 2017، ص 57.

[3]– مبروك ساحلي: شبكات الشّتات العلمي ودورها في تحقيق التنمية (دراسة حالة شبكات الشّتات العلمي العربي)، مجلة البحوث والدّراسات الإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، 2020، المجلد 14، العدد 20 ،ص 109.

[4]– زوليخة حنطابلي: الرواية وقضية الشّتات الفلسطيني قراءة في "برتقال إسماعيل" لكلير حجّج، مجلة اللّغة الوظيفية، جمعة يحي فارس، المدية، المجلد 9، العدد1، ص 23.

للشّتات"[1]، فالشّتات عند اليهود أزمة وجودية متجذرة فيهم، تحمل في عمقها الشّعور باللاّهوية، وبمحاولتهم وضع نهاية لهذه الأزمة بتجميع ذلك الشّتات، أحيوا أو صنعوا شتاتا آخر جديدا وهو الشّتات الفلسطيني الذّي يعني "البعثرة، اقتلاع الإنسان الفلسطيني من جذوره ليعيش بعيدا عن تلك الجذور، وأحيانا بعيدا عن أهله يعاني التّمزق والألم بعد أن فقد كل شيء تقريبا"[2]، حتّى ذاتَه.

ليقف بذلك عند الشّعب الفلسطيني مع أبشع صورة، فلا يتوقف عند الخروج من الوطن بل يستهدف هوية الإنسان وتدميرها متجاوزا بذلك معنى الهجرة والمنفى إلى البعثرة والتّمزق.

2. أدبُ الشَّتات:

لطالما ارتبط الأدب بالحياة ومتغيراتها، وكان المرآة العاكسة لتوجّهاتها، يصوّر شغف الإنسان وتمرّده وحنينه وآلامه، ويواكب ثوراته، ويستنطق منفاه وشتاته.

أ. مفهومُ أدبِ الشّتاتِ:

هو الأدب الّذي صور فيه الأدباء تجربة الابتعاد عن أوطانهم التّي عاشوها مرتبطة بالتّجربة الخاصة بمجموعات أو أمّة تحمل ذاكرة مشتركة، و"يتحدد هذا النمط من الكتابة عالميا تحت مسمى أدب الدّياسبورا« diaspora »[3]، وهو أدب المجموعات التي تعيش خارج أوطانها، أو الأدب الذي تم كتابته بعيدا عن وطن الكاتب الّذي اضطر إلى مغادرته أو غادره قسرا، وأصحابه هم الكتاب الذّين مارسوا ويمارسون فعل

[1]- رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشّتات الفلسطيني، مرجع سابق، ص 57.

[2]- ماجدة محمود : النقد الأدبي الفلسطيني في الشّتات، مؤسسة عيبال، دب، ط1، 1992، ص 11.

[3]- عتيقة غازي: كتابة الشّتات وشتات الكتابة في الرّواية المغاربية، مجلة ريحان للنّشر العلمي، مركز فكر للدراسة والتطوير، 2021، العدد 16، ص 160.

الكتابة خارج أوطانهم ولغاتهم الأم، في وضعية عدم الاستقرار، وبحسٍّ فَجائعيّ وإحساس بالاضطهاد والخوف والاقتلاع لأنهم يكتبون عن وطن في الذاكرة سيستوطن بدوره الورق يكتبون عن أوطان افتراضية وبحس عنيف بالرفض وعدم التّلاؤم والاندماج في المجتمعات المضيفة، وحنين ممض إلى العودة"[1]، لديارهم مصورين راسمين في خطاباتهم ذلك الحنين للوطن المتروك، فحياة الشّتات التي اضطروا إليها ليست مجرد هجرة من بلد إلى آخر، إنّما يصاحبها شعور كبير بالضّياع والفقد، و"أدب الشّتات قد كتب في ظل ظروف غير طبيعية سياسيا واجتماعيا، ونشأ في محيط آخر يحتوي على مشكلات عديدة تواجه الأدب من جهة والإنسان المنفي من جهة أخرى، فإنّ هذا النّوع من الأدب اكتسب مزايا في التشكيل الفني والمضموني"[2]، وإنّ هذا الأدب قد "انخرط في التّأسيس لخطاب نقدي للواقع السّياسي والثقافي والإنساني الذي خلقته سياسات الاستعمار ومحاولات طمس الهوية الثّقافية للشعوب المستعمرة عن طريق فرض الأنماط الثقافية لدول الاستعمار، وفرض لغتها في العديد من البلدان المستعمرة، كما أنّ هذا الأدب قام بتعرية تحيزات الاستعمار ووحشيته وأسلوبه في فرض الهيمنة بالقوة"[3]، فكان أدبا استقرائيا، وبذلك "يعبر أدب الشتات عن حقل واسع من الموضوعات والدلالات والأفكار والاحساسات التي خلقتها حالة الهجرة من البلدان الأم، ولكن هذه الهجرة لم تكن طوعية في الغالب فإنها كانت نتيجة لعوامل سياسية تتعلق بأن هذه البلدان واقعة تحت هيمنة الاحتلال أو الاستعمار فإنّ هذا النوع من الأدب قد ارتبط من الناحية التّصنيفية بنزعة ما بعد الاستعمار ونظريات ما بعد الحداثة التي تستكشف القيمة الجمالية للأدب من خلال تمثيله لمشكلات تنتمي للواقع"[4]، فأدب الشّتات مرآة عاكسة لواقع حافلٍ بالمشكلات، وبدروه حافلٍ

[1]- عتيقة غازي: كتابة الشّتات وشتات الكتابة في الرّواية المغاربية، مرجع سابق، ص 160.

[2]- نجود الربيعي: التشكيل السّردي للشتات في رواية الإسكندرية 2050، مجلة عود النّد 2022، العدد 26.

[3]- المرجع نفسه.

[4]- المرجع نفسه.

بالموضوعات، ثريٍّ بالدّلالات والأحاسيس النابعة من عمق الذّوات المتفرقة في الهجرة قهرا وقسرا أو اختيارا لظروف ما.

ب. خصائصُ أدبِ الشّتاتِ :

لأدب الشّتات ميزات وخصائص عديدة تمنحه الفرادة والخصوصية عن باقي أنواع الأدب، فقد جمع في سردياته ما ارتبط بالمكان والأشخاص والمشاعر والإدراكات، من أهم هذه الخصائص:

– عدم التّأقلم مع الأمكنة المستضيفة إذ يعبر أدب الشّتات دائما عن "عدم قدرته على تأسيس علاقة مع الأمكنة الطارئة، فهو دوما في حالة حنين للجذور وللوطن"[1]، فكاتب الشّتات في حنين مستمر، لا يستطيع نسيان وطنه الأم أو تقبّل ما طرأ عليه من أمكنة وأشخاص وحتّى إدراكات.

– التّساؤل الدّائم عن الوجهة المقبلة، وقد تجسد ذلك في عديد الرّوايات والقصائد على نحو "محمود درويش" الذي أغرق في السّؤال و الجواب حين يقول:

"إلى أين أذهب؟

ليست مفاتيح بيتي معي

ليس بيتي أمامي

وليس الوراء ورائي

وليس الأمامُ أمامي

[1]– رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني، مرجع سابق، ص 177.

إلى أينَ أذهب؟

إنّ دمائي تطاردني والحروب تحاربني

والجهات تفتّشني عن جهاتي.

فأذهبُ في جهةٍ لا تَكون..[1].

– البحث عن العلاقة بين الأوطان الأم والأوطان المستضيفة، من خلال طرح فكرة الانتماء وسؤال الهوية[2].

– محافظة أدب الشّتات على اللّغة الأم، كمحاولة لإثبات الانتماء و"عدم اندثار اللّغة في ذاكرة المهاجر"[3]، وهذا من السّمات الفنية الرّاسخة فيه.

– الرّغبة في الرّجوع إلى المكان الأول، إذ يعبّر دائما عن كون "إرادة العودة هي الفكرة الحاضرة في سرديات الشّتات"[4].

– تعدّد الأنساق وارتباطها بالصّراع مع الآخر المستضيف بسبب فكرة التّقبل والاندماج والتّكيف[5].

[1]– محمود درويش : ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، دط، 1978، المجلد الثاني، ص326 .

[2]– ينظر: رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني، مرجع سابق، ص 121.

[3]– نجود الرّبيعي: التشكيل السّردي للشتات في رواية الإسكندرية 2050، مرجع سابق.

[4]– المرجع نفسه.

[5]– ينظر: رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني، المرجع نفسه، ص 230.

– الاسترجاع والتّذكر، إذ لا يفتأ أدب الشّتات يسترجع ويتذكر الأمكنة والأشخاص، ويستدعي المشاعر السّابقة، فيشكل وطنه في متخيّله كما عرفه وأحبّه وتعوّد عليه، ولعلّ هذه السّمة منعته من التأقلم وتقبل المكان المستضيف.

– الغربة والحنين ، الغربة في الوسط الجديد والحنين للأصل.

– الشّكوى والألم.

3. الشّتاتُ والمنفَى (التّداخُل والاختلافُ) :

قد يتداخل الشّتات مع المنفى ويتشاكلان ويلتبس أمرُهُما على الدّارس وذلك لما يشتركان فيه من سمات إذ "يعد أدب المنفى النّواة التّي تشّكل منها أدب الشّتات باعتبار الأول (المنفى) جزءا من الثّاني (الشّتات)، ففي المنفي كتب أدباء وروائيون على وجه الخصوص تجربة الإبعاد التّي عاشوها منذ النّكبة التّي لا تزال رغم مرور أكثر من سبعين سنة عليها"[1]، فتجربة المنفى تخلق حالة التّشتت وتعزّزها لدى المنفيِّ المبعَدِ عن وطنِه وأهلِه لا يحمل غير الذّكرى رابطًا، وهو في مُفترقٍ بين الماضي والحاضرِ مُشتّت الذّات مهزوز الهوية كثير التّساؤل.

أمّا وجه الاختلاف بين الشّتات والمنفى فيكمن في أنّ الشّتات ذو طابع جماعي لأنه يعني الأمم وليس الفرد كما هو الحال مع المنفى.

[1]– زوليخة حنطابلي: الرواية وقضية الشّتات الفلسطيني قراءة في "برتقال إسماعيل" لكليل حجّاج، مرجع سابق، ص 525.

وعليه "ينهض الشّتات نظريا وعلميا على ارتحال أمة، لا ذوات مفردة، فهو معرفيا يتصل بالمجموعة التّي تخضع لتمييز عنصري عرقي، فثمة إكراه وهو ما يجعل منه شتاتا، ولكي يستقيم الأمر اشتراطيا من أجل تحقق مفهوم الشّتات، ينبغي أن يتوفر خيار العودة أو الرّغبة بالعودة على الرّغم من أنها قد تبدو بعيدة أو غير متاحة"[1].

وهذا كله تمايز بينهما، فتجربة الجماعة مغايرة تماما لتجربة الفرد، وإن ارتبطت بها، ونفي أفراد يؤدي اجتماعهم في المنفى إلى صياغة حالة الشّتات والتّبعثر.

[1]- رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني، مرجع سابق، ص 39.

ثانيّا: السّيرةُ في الأدبِ.

لقد كان للسيرة حيّز كبير من الأدب، فمنذ بداية التّدوين اهتمّ الكتّاب بتدوين سير السابقين كسيرة الرسول والصحابة والتابعين، وجعلوا من ذلك حفظا وتوثيقا لأهمّ الأحداث في التاريخ العربي.

1. مفهومُ السّيرةِ في اللّغة والاصطلاحِ:

أ. في اللّغة:

ورد لفظ السّيرة في عديد المعاجم العربية على رأسها معجم "لسان العرب" الذي أجملها بأنها الطّريقة، فورد فيه "السّيرة: الطّريقة: يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسّيرة الهيئة وفي التّنزيل العزيز: سَنُعِيدُها سيرتها الأولى، وسَيَرَ سيرة: حدث أحاديث الأوائل"[1]، أما "القاموس المحيط" ففيه "السّيرة بالكسر، السُّنة، والطّريقة والهيئة، والميزة"[2]، وكذلك في "معجم اللّغة العربية المعاصرة" "سيرة: طريقة، سُنة، سلوك "كان ذا سيرة حسنة" حالة، هيئة.. تاريخ حياة الإنسان، صحيفة أعماله"[3]، وهي "جمع سِير، السُّنة، الطّريقة، المذهب، الهيئة، الحالة التي يكون عليها الإنسان"[4].

ولقد عرّفها "لطيف زيتوني": سيرة Biography-Biographie كتاب يروي حياة صاحبه (سيرة ذاتية Autobiographie)، أو حياة غيره (سيرة غيريّة Biographie)، أما وقائع السّيرة فقد تكون حقيقية، أو

[1]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الثّالث، مادة سير.

[2]- مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مرجع سابق، مادة سير.

[3]- أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، مادة سِير.

[4]- جبران مسعود: الرّائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1992، ص 457.

تختلط فيها الحقيقة بالوهم، والسّيرة تختلف عن المذكرات Mémoires والاعترافات Confessions، وقد تكون أحيانا مجرد إطار فني لحوادث خيالية وهميّة بكلّيتها"[1].

وكذلك في "المعجم الأدبي" دارت في المجال نفسه فـ "سيرةٌ"، biographie. Autobiographie. Biographie du prophéte :بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيّرة أو الترجمة، ويفصّل المنجزات الّتي حقّقها وأدّت إلى ذيوع شهرته وأهّلته لأن يكون موضوع دراسة"[2].

وحفظ القرآن الكريم هذا اللّفظ في قوله تعالى: "قال خُذْها ولا تَخَف سَنُعِيدُها سيرتها الأولى" (سورة طه الآية 21)، أي "(سنعيدها سيرتها) منصوب بنزع الحافض أي: حالتها"[3].

ومنه فقد اتفقت المعاجم القديمة على القول بالسّيرة طريقة ونهجا وسنة، واتفقت المعاجم الحديثة على القول بأنها رواية حياة بوقائعها وعرضٌ يسرد مراحلها، فكان جِماع القول بأنّ السيّرة سرد لنهج وطريقة عيشٍ.

ب. في الاصْطِلاحِ:

السّيرة من الفنون الأدبيّة الّتي تستوعب تجارب حياة ذاتية أو غيريّة إنها "بحث يستعرض فيه الكاتب حياته أو حياة أحد المشاهير مبرزا من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرة حياته أو حياة المتحدث عنه"[4]، فهي فن مرتبط بحياة الأفراد، أو هي "قصة تاريخية لا تشدّ أبدا عمّا يقيّد التّاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات

[1]– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي، إنجليزي، فرنسي)، دار النّهار للنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 110.

[2]– عبد النّور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط 1، 1979، ص 43.

[3]– جلال الدين محمد بن أحمد المصلي وجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: تفسير الجلالين (مع أسباب النّزول)، مرجع سابق، ص 414.

[4]–ندى محمود مصطفى الشّيب: فن السّيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992– 2002، رسالة ماجستير في اللغة العربية كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، 2006، ص 05.

والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء، إلا أنها قصة تتعلّق بحياة إنسان فرد ترك من الأثر في الحياة ما جذب إليه التّاريخ، وأوقفه على بابه"[1]، فالسّيرة من هذا المنظور مسجّلة ومقيّدة لتواريخ حافلة بالأثر، فهي ذات أهمية تكمن في قدرتها على التّدوين الموثوق وهذا ما اعتمده أهل التّاريخ، إذ "الأمة التّي تحرق جثث رجالها، ولا تُعنى بتسجيل أعمالهم، وإذا مضى على وفاة أحد عظمائها ستون سنة لم تستطع أن تتحقق إن كان ذلك العظيم شخصية تاريخية أو خرافية، لَهِيَ أمة- فيما يراه اشبنجلر- ضعيفة الإحساس بالتّاريخ"[2]، في مقابل ذلك "الجماعة التّي تعيش في ماضيها ومستقبلها وتدور حياتها على التّخليد والتّأييد وتسجل سير رجالها على الجدران وفي أوراق البردي وتتخذ مادة تماثيلها من حجارة شديدة الصّلابة كالبازلت والجرانيت فإن إحساسها بالتّاريخ عميق ودقيق"[3]، وهي الأمّة الأقوى الّتي أسّست لحاضرها من خلال ماضيها.

أمّا أهل الأدب فيرون أن السّيرة "يجب أن تركز على شخص واحد يكون هو محور الحديث، والأشخاص الآخرون، والأحداث تدور في فلكه"[4]، جاعلين مدار هذا الفنّ الأدبي شخصا محوريا يرتقون به ويفرشون له بساط الأحداث وشخوصها الآخرين، فالسّيرة "ترجمة لحياة أو جزء من حياة شخصية إنسانية فارقة ذات تميز معين أو هي سرد نمطي حكائي متماسك في فضاء زماني ومكاني محدد للحياة...يتولى فيه الرّاوي ترجمة حياة خصوصيّة إبداعيّة في مجال معرفي حيوي، بعمق لما يستحق أن يروى.. فيقدم الرّاوي تجربة تستحق أن تقرأ، وتتمثل في سرديّة

[1]- عبد العزيز شرف: أدب السّيرة الذّاتية، مؤسسة الأهرام للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 1998، ص 04.

[2]- إحسان عبّاس: فن السّيرة، دار الشرق، عمّان، الأردن، ط 1، 1986، ص 09.

[3]- المرجع نفسه، ص 10.

[4]- تهاني عبد الفتاح شاكر: السّيرة الذّاتية في الأدب العربي (فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عبّاس نموذجا)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2002، ص 17.

السّيرة عناصرها الرّئيسية وشروط أسلوبها وتعبيرها "[1] ، فسردية السيّرة لها خصوصياتها وأساليبها الفنيّة وطريقتها في إخراج الوقائع بأساليب فيها من الخيال ما لا يتعارض مع واقعيتها.

وَتُجمع التّعاريف السّابقة على أنّ السّيرة فن أدبي نثري يؤلفه كاتب معين يعرض من خلاله حياته أو حياة غيره وفق مرجعية واقعية لنصّه .

ت– السّيرةُ والتّرجمةُ الذّاتيةُ وأدبُ المذكّراتِ والفرقُ بينهم:

التّرجمة نوع من الأنواع الأدبية يتناول فيها الكاتب "ما يتصل بشخصية المترجم له وينقلها من وضع إلى آخر، حيث يحدد ما علق بها من افتراء أو زيف ويزيل ما زاد على بعض جوانبها من غموض"[2]، فيوضح هذا الغموض أو الزّيف بنقل كل ما يخص شخصية المترجم له.

ويعرّفها الباحثون لذلك بأنها: "ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر تعريف يطول أو يقصر، وتختلف طبيعة الترجمة باختلاف العصر والرّجل الذي تدور حوله التّرجمة"[3]، فكل شخصية تختلف ترجمتها عن غيرها بحكم الاختلاف في العصر وطبيعته، واختلاف الشّخصيات عن بعضها البعض من جميع النّواحي العلميّة والإيديولوجية والدّينية والثّقافية وغيرها.

وتتوقف التّرجمة على مدى قدرة المترجم على "رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التّي تجمعت لديه عن المترجم له"[4]، ليترجمها وفق منهجية و يعطي بكتابته صورة واضحة على المترجم له .

[1]– عماد علي سليم الخطيب: في الأدب الحديث ونقده عرض وتوثيق وتطبيق، دار المسيرة، د ب، د ط، د س، ص 144.

[2]– محمد صالح الشّنطي: فن التّحرير العربي (ضوابطه وأنماطه)، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السّعودية، ط 5، 2001، ص 215.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– محمد عبد الغني حسن : التّراجم والسّير، دار المعارف، د ب، د ط، 1995، ص 09 .

أما السّيرة فهي "ضرب من ضروب التّرجمة تنفسح آمادها وتزخر بالحديث الموسع، فالتّرجمة إذا طالت تسمى سيرة، كانت كلمة سيرة وثيقة الصّلة بما كتب الرّسول (ص)، لكنها خرجت عن هذا الحيّز المخصوص إلى آفاق واسعة"[1]، فالعلاقة بين السّيرة والترجمة علاقة جزء من كل لأنّ التّرجمة عبارة عن سيرة قصيرة مختصرة، وإن طالت خرجت عن تصنيف التّراجم إلى تصنيف السّير، وكانت السّيرة محصورة في السيرة النبوية، لكنها اتسعت من هذا الحصر إلى شخصيات أخرى، تختلف كل الاختلاف عن شخصية الرسول (ص)، وبذلك من الحيز الخاص إلى الحيز العام بشكل واسع.

وهذا ما توصل إليه "يحي إبراهيم عبد الدّايم" حين تتبع تطور اللّفظتين وخلص إلى القول: "أنه على مر العصور نرى كلمة "ترجمة" يجري الاصطلاح على استعمالها لتدّل على "تاريخ الحياة الموجز للفرد، وكلمة "سيرة" يصطلح على استعمالها لتدّل على "التاريخ المسهب للحياة"،[2] وبهذا فإن التّصنيف يكون على أساس الطّول والقصر فإن قصر الحديث عن الشّخصية عدّ ترجمة وإن طال عدّ سيرة.

والفرق بين التّرجمة والسّيرة "ليس في الفروق اللّغوية ما يبين الفروق بينهما على وجه التّحديد، إلاّ أن الاصطلاح والاستعمال هما صاحبا الفتوى في هذا فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا التّرجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها، فإذا ما طال النّفس واتسعت التّرجمة سميت سيرة"[3]، بمعنى إن طال الحديث عن حياة الشّخصية فهذا يدخل في تصنيف السيرة، وإن قصر فهو ترجمة، والاستعمال وحده الذي يفرّق بين اللّفظتين من حيث المدلول، كما أن لفظة السّيرة قديمة الاستعمال من لفظة ترجمة في التّراث العربي، والدليل أن السّيرة النّبوية هي أقدم السّير في التّراث العربي.

---

[1]- محمد صالح الشّنطي: فن التّحرير العربي، مرجع سابق، ص 215.

[2]- يحي إبراهيم عبد الدّايم: الترجمة الذّاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د س، ص 31.

[3]- محمد عبد الغني حسن: التّراجم والسّير، مرجع سابق، ص 27.

أما المذكرات فظهرت قديما منذ عصور بعيدة "تلبية لرغبة بعض الرّجالات في تدوين الأحداث التّي شهدوها أو شاركوا في صنعها، وقد اختلط في هذه الكتابات الوجه التّاريخي بالوجه الشّخصي نتيجة تدخل الكاتب في اختيار الأحداث وفي تفسيرها"[1]، فالمذكرات تختلف من كاتب لآخر بحسب وجهة نظره وتأثره بالأحداث التّي شهدها ورغبته في تدوينها.

كما أن المذكرات "لا تتطلع إلى سبر الذات، ولا تقصر اهتمامَها على الأنا الخاصة بل تصرف اهتمامها غالبا نحو القيم المعنوية أو الأدبية أو السيّاسية، سواء غلب عليها التّاريخ أو السّيرة، فإنّ المذكرات بقيت قصص التّذكر الشّخصي التي تتوسط بين الوثيقة التاريخية والأدب"[2].

فكاتب المذكرات لا يلجأ إلى التّحليل أو التّعمق، ولا يدون صغائر الأحداث التّاريخية، إنّما يعرض أهم الأحداث التّي مرت به معتمدا على تسلسلها وفق تسلسل الأيام، فهو يهتم "بتصوير الأحداث التّاريخية أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذّاتي"[3]، وعلى هذا فإنّ كاتب المذكرات يخالف كاتب السّيرة الذّاتية الذّي يعنى بواقعه الشّخصي الذّاتي أكثر من اهتمامه بالأحداث التّاريخية.

وقد سعى منظرو الأدب إلى رسم الحدود الفاصلة بين السيّرة والاجناس السّردية القريبة منها، و"لعل أوشج هذه الأجناس قربا ما يعرف بالمذكرات، فكثيرا ما استعمل هذا المصطلح بمعنى السّيرة الذّاتية، وكثيرا ما وشّحت كتب السيّرة الذّاتية بعبارة "مذكرات"، وبها تعقد مع المتلقي ميثاق قراءة ولكنه ميثاق زائف لأن الحد الفاصل بين السيّرة الذّاتية والمذكرات قائم، فالسيرة الذاتية على خلاف المذكرات تروي أحداث المذكرات عادة

[1]- لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص 146.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- يحي إبراهيم عبد الدّايم: التّرجمة الذّاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 03.

على تدوين الأحداث، دون التّعليق على الحياة الشّخصية لكاتب المذكرات"[1]، فالمذكرات لون أدبي قريب من السّيرة الذّاتية، لكنها ليست سيرة ذاتية، فهي تسرد ما يحدث خارج نفسية الكاتب، ولا تعطي أهمية لما يعيشه الكاتب من الجوانب الداخلية والتّي تمثل عنصرا مهما في شخصيته وحياته.

أما السّيرة الذّاتية فتركز على ما يجري داخل الأنا من معاني وأفكار وتأملات، والتّي تتحول إلى موضوع الكتابة الاستعراضية، وهو ما يجعل بنيتها طويلة بخلاف المذكرات التي تقف على رصد أهم الأحداث واللّحظات في حياة الأنا والذّات، وهنا يكمن الفرق بينهما.

وفي الأخير نخلص إلى أنّ الفرق بين السّيرة والتّرجمة وأدب المذكرات واضح، لأن الفرق بين السّيرة والتّرجمة يكمن في الطّول والقصر، فإذا طالت التّرجمة تصبح سيرة، والتّرجمة نوع من السّيرة والفرق بينهما الإيجاز والإسهاب في الحديث عن الشّخصيات، وكذلك المذكرات تختلف عن السّيرة الذّاتية كونها تجارب حقيقية يكتبها الكاتب وفقا للأحداث التّي عاشها، وتصف فترة قصيرة محددة من حياة الشّخص بينما السّيرة الذّاتية تغوص في تفاصيل حياة الشّخص من كل الجوانب حد الإسهاب في الحديث عنه.

2. أدبُ السِّيرةِ:

لقد كان الأدب ولايزال يلازم مسار الإنسان، ولا يمكن أن نعزله عن ذلك وإن حاولنا، فالأدب على تنوعه واختلاف اتجاهاته ومدارسه، نتاج إنسانيّ بالدّرجة الأولى.

[11]–محمد الباردي: عندما تتكلم الذّات (السيّرة الذّاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2005، ص 09.

أ. **مفهومُ أدبِ السِّيرةِ :**

إنّ القول بأدب السّيرة يجعلنا نقف عند علاقة الأدب بالسّيرة، فأدب السّيرة "نوع من الأدب يجمع بين التّحري التّاريخي والامتاع القصصي، ويُراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"[1]، ويعني كذلك "حياة إنسان أو بعض منها مدونة بقلمه وهو اقتحام للذّات لكشف حركة النّفس الباطنية ومستوى وعيها فوراء كل أدب ذاتي اعتقاد بأن الذّات مستقلة ولكنها شفافة أمام نظر نفسها تتطلب جرأة حقيقية لتدوينها"[2]، ووعيا عميقا بالذّات، ويتقاطع مع حركة النّفس الباطنية في حالة مدّ وجزر تتمخّض عنها رؤية مغايرة لكنّها لا تُعارض الواقعَ.

إنّ أدب السّيرة "جنس أدبي له تقنياته الفنية الخاصة به، لأنه يعتمد على الحقائق، التي تصاغ في أسلوب أدبي، يستعمل فيه الخيال بقسط محدود وبما لا يتعارض مع عرض هذه الحقائق في حياة صاحبها، ومن شأن هذا العمل أن يحدث متعة جماليّة، انطلاقا من هذا التّصور ينبغي أن نستبعد من هذ الفن تلك الصّورة الفنية التّي تأخذ طابعا مختلفا عن السّيرة"[3]، وقد يعتقد البعض أنّ هذا الأدب –أدب السّيرة– أدب نمطيّ مملّ يعيد كتابة أحداث ووقائع دون إعادة تشكيلها، لكن الأمر ليس كذلك، فأدب السّيرة وإن اعتمد على الحقائق كمرجعيات، فإنّه لم يخلُ من بعض الخيال والكثير من المتعة الفنية، ما يجعله أدبا متفردا بفكره ولغته، وإنسانيته، لأنه "ذلك النّوع الأدبيّ الذي يتناول بالتعريف حياة إنسان ما، تعريفا يقصر أو يطول، فإن جانبا كبيرا من جوانب الحياة في

[1]– عبد النّور جبور : المعجم الأدبي، مرجع سابق، ص 143.

[2]– مسيكة بلباشة: تجليات السّيرة الذاتية في الرواية الجزائرية رواية "مزاج مراهقة"، لفضيلة الفاروق أنموذجا، مجلة المدونة، المجلد 5، العدد1، ص 181.

[3]– شعبان عبد الحكيم محمد: السّيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، الوراق للنشر والتوزيع، عمّان، ط 1، 2015، ص 18.

هذه السّيرة يقوم على التّفكير والتّأمل من جهة والسّلوك والعمل من جهة أخرى، ولكنها إلى جانب هذا وذاك فنٌ أدبي جوهره التّواصل اللّغوي"[1]، لتكون اللغة رابطا بين الإنسان والواقع حاضرا وماضيا، وهو أدب "له مكانته... وله خطورته، بما يحمل إلى النّاس من نماذج بشرية وقيم إنسانية لابد أن يكون لها أثرها في تكوينهم وتوجيههم"[2]، فيشكل بذلك وعيا مستوحيا من النّماذج المؤثرة في الحياة، أبطالها أشخاص لهم قيم ومبادئ وأفكار لا تموت.

ب. خصائصُ أدبِ السّيرةِ :

لأدب السّيرة خصائص عدّة منهَا:

-الإلمام بالواقع، إذ "من واجب كاتب السّيرة أن يُلِّمَ بكل الحقائق التّي لها صلة مباشرة ببطله، وبالأحداث والمواقف التّي كان لها تأثير مباشر في حياته"[3]، فلا يمكن أن يستقيم أدب السّيرة إذا لم يحتوِ الشّخوصَ المعنيين بكلّ تفاصيلهم.

- التّعبير عن الانفعالات، إذ لابد أن يجيش قلم كاتبِ أدب السّيرة بكافة الانفعالات والعواطف الّتي تثور في أعماق البشر[4]، فيتكون بذلك أدبا حيويا مفعما بتقلبات النّفس البشرية، ما يجعله أدبا مؤثرا وملامسا لذات القارئ، ومصورا للصّراع الماثل في النّفس "تصويرا يطلعنا الكاتب من خلاله على دخائل نفسه وأثر أحداث الخارج في حياته النّفسية والشّعورية والفكرية"[5]، فيوصل إلينا انفعالاته ويجعلنا نتفاعل معها.

[1]- عبد العزيز شرف: أدب السيّرة الذّاتية، مرجع سابق، ص 02.

[2]- عز الدّين إسماعيل: الأدب وفنونه (دراسة ونقد)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 9، 2013، ص 157.

[3]- المرجع نفسه، ص 153.

[4]- ينظر: عبد العزيز شرف: أدب السّيرة الذّاتية، المرجع نفسه، ص 04.

[5]- يحي إبراهيم عبد الدّايم: الترجمة الذّاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 05.

– الابتعاد عن الخيال، "فكاتب السّيرة أديب فنان كالشّاعر والقصصي في طريقة العرض والبناء، إلا أنه لا يخلق الشّخصيات من خياله، ولا يعتمد الشّخصية الأسطورية، ككاتب المسرحيّة... وهو كالمؤرخ في قوة النّقد وكالعالم في القدرة على التّصنيف والتّقسيم"[1]، وذلك كي يمنح السّيرة مصداقية وتميّزا.

–الصّدق، ويعد من أهم مميزات أدب السّيرة لأنّه إن غاب فيها "لم تعد تسمى سيرة لأن الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ويجعلها قصة منمقة ممتعة"[2]، ما يجعله فارقا في تحديدها.

–التّاريخ، وذلك لارتباطه بحياة الأشخاص وانجازاتهم وتأثيراتهم، لتكون غاية السيّرة في الأدب هي "الرغبة في تأريخ حياة فرد من الأفراد أو جانب كبير من حياته، لا تحقيق لنظرة خاصة، أو فلسفة محدودة، وهذا يقتضي كاتب السّيرة أن يدير الأحداث حول الشّخص المترجم ولا يسمح لحياة الأشخاص الآخرين بالتّحكم في منحى السّيرة، ولا يعرض من حياتهم إلا المقدار الذي يوضح حياة بطل السّيرة نفسه"[3]، وهنا تتدخل قدرة كاتب السّيرة الذي يمتلك زمام إدارة الحياة بواقعتيها في نص أدبي.

– حسنُ التّرتيب، إذ يجب أن يكون للسّيرة في الأدب "بناء مرسوم واضح يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التي مرت به، ويصوغها صياغة أدبية محكمة، بعد أن ينحى جانبا كثيرا من التفصيلات والدقائق التي استعادتها ذاكرته وأفادها من رجوعه إلى ما قد يكون لديه من يوميات ووسائل ومدونات تعينه على تمثيل الحقيقة الماضية"[4]، وفق نظام ترتيبيّ محدّد.

– حسن انتقاء الألفاظ المناسبة للتّعبير عن المواقف وتصويرها.

---

[1]– شعبان عبد الحكيم محمد :السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)،مرجع سابق، صص(79،80) .

[2]– المرجع نفسه، ص69.

[3]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]– يحي إبراهيم عبد الدّام: التّرجمة الذّاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق، ص 04.

ت. واقعُ وحياةُ أدبِ السّيرةِ العربيِّ قديمًا وحديثًا:

السيّرة من الفنون الأدبية الّتي ترجع إلى القرن الأول الهجري، وإذا "كان الشّعر ديوان العرب فإن التّراجم والسّير هي ديوان المسلمين، فالأدب العربي فيما قبل العصر الحديث يحتوي على تراجم لمئات الآلاف من المسلمين والقادة والعلماء إلى العشاق والمجانين"[1]، إذن فالسيرة هي ديوان المسلمين إذ ترك العرب الكثير من التّراجم والسيّر التي اختلف فيها الباحثون فيما بعد، فمنهم من رأى أن هذا الفن وليد البيئة العربية، أصيل في الثّقافة العربية، ومنهم من رأى أنه نتيجة الاحتكاك بالثقافة الغربية والاطلاع على نماذجها.

وأوّل ما عرفه العرب –فيما عرفوا– السّيرةُ النّبويةُ، وهي طريقة الرسول عليه الصّلاة والسّلام في حياته، من مولده حتى وفاته وكل ما يتعلق به من أحداث وأشخاص مع ترتيبها زمنيا، يرى "محمد عبد الغني حسن" في كتابه "التّراجم والسيّر" أن ظهور فن السيّرة في الثقافة العربية متصل بالسّيرة النّبوية فيقول: "تعدّ السّيرة النّبوية أوسع ما في التّراجم الإسلامية وأقدمها ظهورا، وأولها وأولاها باهتمام المؤرخين والكتّاب، فقد كانت المحور الذّي تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره وانتشاره بالغزوات والفتوح"[2]، يضيف "محفوظ كحوال" في كتابه "الأجناس الأدبية النّثرية والشّعرية" بأنّ "العرب من الأمم السّباقة إلى هذا الفن وهذا يعود إلى طبيعة الإنسان العربي المتمثلة في ارتباطه بتاريخ أمّته والحفاظ على تواريخ أبنائها الأخيار وأعمالهم المجيدة لذا اهتم العرب في القديم بفن التّراجم والسّير اهتماما بالغا"[3]، وتباينوا في رصدها فللرسول صلى الله عليه وسلم مثلا سير كثيرة حسب رواتها.

ولفظة سيرة أوّل ما استعملت اطلقت على سيرة الرّسول، وأطلق على المؤلفين فيها أصحاب السيّر منهم: "ابن سعد"، إلى أن جاء "في أواخر القرن الثّالث الهجري أحمد بن يوسف بن الدّاية –الكاتب المصري –

[1]– مايكل كوبرسون: فن السّيرة في العربية (عصر المأمون نموذجا)، تر: محمود محمد مكي، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص 15.

[2]– محمد عبد الغني حسن : التّراجم والسّير، مرجع سابق ،ص 18.

[3]– محفوظ كحوال: الأجناس الأدبية والنثرية والشّعرية، دار نوميديا للنّشر والتّوزيع، الجزائر، د ط، 2007م، ص 76.

يؤلف كتابا في "سيرة أحمد بن طولون"، ولعل هذه أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة "السّيرة" من سيرة النّبي إلى سيرة غيره من الرّجال"[1]، وجاء بعده بزمن وجيز كاتب مؤرخ اسمه "عبد الله البلوي" لم تعجبه سيرة "ابن طولون" فأعاد كتابتها وتوالت كتابة سير الرجال العظماء والعلماء من بينهم: "كتاب "اليمنى" كتبه "أبو النّصر العتيبي" (427هـ) إذ ترجم فيه حياة السّلطان "محمود الغزنوي"، سيرة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه كتبها "ابن الجوزي"، سيرة "الإمام الشّافعي" كتبها الإمام "فخر الدّين الرّازي" (606هـ).

واختفت في "القرن السّابع والثّامن والتّاسع ظاهرة السّير للأموات السّالفين، وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السّلطان ومؤسسي الدّويلات، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين"[2]، فكتب "ابن شداد" (632) سيرة "صلاح الدّين الأيوبي"، وكتب "محمد بن أحمد النّسوى (639هـ) سيرة السّلطان "جلال الدّين منكبرتي".

فانطلاقة هذا الفن كانت انطلاقة دينيّة عقيدية، عنيت بداية بتسجيل سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، بعدّها التّشريع الأمثل للمسلمين وتطورت فيما بعد لتسجّل عظماء الأمة، من الخلفاء والملوك والحكام ورجال السّياسة.

أما حديثا فقد طغى عليها الحسّ الأدبيّ ولعلّ أول سيرة عربية في العصر الحديث كما يرى "إحسان عبّاس" هي كتاب "السّاق على السّاق فيما هو التّرياق" "لأحمد فارس الشّدياق"، فيها حديث عن تنقلات الشّدياق وبعض أحواله"[3]، تعد أول سيرة أدبية في العصر الحديث، بينما هناك من المؤرخين من يعتبر كتاب الأيام

[1]- محمد عبد الغني حسن: التّراجم والسّير، مرجع سابق، ص 27.

[2]- محفوظ كحوال: الأجناس الأدبية والنّثرية والشّعرية، مرجع سابق، ص 29.

[3]- إحسان عبّاس: فن السّيرة، مرجع سابق، ص 130.

"لطه حسين" هو أقدم كتاب من هذا النّوع، واعتبروه أول نموذج يقدم صورة فنية كاملة لهذا الفن الأدبي، وبعدها توالت وانهالت التّرجمات مثل كتاب "حياتي" الذّي صدر عام 1950م، للمفكر "أحمد أمين".

ومنه فقد سار هذا الأدب طويلا في تاريخ العرب، انطلاقا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرورا بسير غيره، فسيرِ الرجال العظماء والعلماء، وصولا إلى الاهتمام بسير الأحياء بعد أن كانت مقصورة على سير الأموات، وقد انطلقت دينية عقيدية لتتحول أدبية في العصر الحديث.

3. أنواعُ السّيرِ في الأدبِ:

السّيرُ في الأدب متعددة الأنواع والأشكال، ولذا فهي متعددة التعريفات تبعا للنّوع والشّكل الذّي تأخذه، إلّا أنّ أشهرها وأعمّها نوعان:

أ. السّيرةُ الذّاتيةُ:

السّيرة الذاتية نوع من السّير الماثلة في الأدب، إنها "كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادّة ومنهجا عن المذكرات أو اليوميّات"[1]، ففي الإنجليزية Autobiography، وفي الفرنسية Autobiographie ، أو هي "نص سردي يتميز عن الرّواية المروية بضمير المتكلم بأنه لا يقدم متخيّلا وهميا بل يعرض الأحداث الحقيقة التّي وقعت للرّاوي/ الكاتب، ولا شك في أنّ الصورة التي تقدمها السّيرة الذّاتية قد تختلف عن حياة الراوي في الواقع إمّا بسبب عجز الذّاكرة عن إعادة تكوين الحدث الماضي وإمّا بسبب الرّغبة في تحميل الحقيقة أو

[1]- عبدالنور جبور : المعجم الأدبي، مرجع سابق، ص 143.

تعتيمها"[1]، وهي فسحة تمنح الكاتب سبل ملء فراغات قد يراها ناقصة أو سلبية في حياته فيحاول تحميلها أو تعتيمها.

يرى "فليب لوجون" "philippe Lejeune" أنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة"[2]، فهي بذلك اهتمام فردي يضم جميع التفاصيل المتعلقة بهذه الشّخصية والمراحل التي مرت بها والتّركيز على أهم أحداثها في "عمل أدبي يقوم فيه مؤلفه بسرد قصة حياته، ويتضمّن بالضّرورة وصفا مباشرا ودقيقا لبعض الحوادث التّاريخية وملامح الحياة في الفترة التّي عاش فيها صاحب السّيرة"[3]، وتفاعل معها.

كما ذهب "إحسان عباس" إلى أنها ليست "حديثا ساذجا عن النّفس ولا هي تدوين للمفاخر والمآثر"[4]، بل هي جمع لفكر ووعي ومشاعر موجهة بطريقة مدروسة نحو ما يريد صاحبها فهي "تعني حرفيا ترجمة لحياة إنسان كما يراها هو"[5]، فصاحب السيّرة متحكم في زمانها.

والسيرة في الأدب مرتبطة ارتبطا وثيقا بالماضي، إذ تجعله "منطلقا لسرد الحكاية، فإنما يكون ذلك بغرض تحقيق التّجربة الفردية وتوثيق تحولاتها العامة"[6]، هذا الماضي الذي تنبثق منه تجربة فردية بتغيراتها فتمس وعي قارئها وقد تلهمه من ناحية أخرى.

[1]– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي، إنجليزي، فرنسي)، مرجع سابق، ص 111.

[2]– فيليب لوجون، تر: عمر حلي: السّيرة الذّاتية الميثاق والتّاريخ الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص 22.

[3]– أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 1148.

[4]– إحسان عباس: فن السّيرة، مرجع سابق، ص 91.

[5]– عبد العزيز شرف: أدب السّيرة الذّاتية، مرجع سابق، ص 27.

[6]– عبد القادر الشاوي: الكتابة والوجود (السيرة الذاتية في المغرب)، إفريقيا الشرق، 2000، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص 49.

ب. السّيرةُ الغيريّةُ:

تجاوز هذا النّوع من السيّر في الأدب دائرة الذّات، وانبعث صوب دائرة الآخر، ليرسم سيرة غيريّة نَسِمُهَا بأنها "بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فَذٍ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلّفه في جيله"[1]، وبحث عن الآخر من خلال سرده وفهم توجهه من جهة وتوجيهه من جهة أخرى، وهي بهذا المقام "تعني الجنس الأدبي الذي يؤلفه بعض الأفراد عن غيرهم من النّاس سواء أكانوا من الشّخصيات التّي عاشت في الماضي أو في الزمن الحاضر"[2]، وكاتبها "مشاهد لا حكم"[3]، وإن برع في إخراجها على النّحو الذي يريده ففي المجمل لا يمكنه أن يحرك أحداثها وشخوصها عكس ما كانوا عليه.

وكاتب السّيرة الغيرية في الأدب يستقصي "أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته، والكشف عن عناصر العظمة فيها"[4]، وذلك لتسليط الضوء عليها وشدّ القارئ إلى تفاصيلها بعدِّها شخصية معروفة لديه، ومن أهم خصائصها الفنيّة:

"1- ترتبط بالأحداث التّاريخية الملازمة لصاحب السّيرة.

2- فيها قدر من الخيال غير المخل بقوتها وأهميتها.

3- تتسم بأسلوب قصصي غير حر.

[1]- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 04.

[2]- ندى محمود مصطفى الشّيب: فن السّيرة الذّاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002، مرجع سابق، ص 07.

[3]- شعبان عبد الحكيم محمد: السّيرة الذّاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مرجع سابق، ص 24.

[4]- عز الدّين اسماعيل: الأدب وفنونه (دراسة ونقد)، مرجع سابق، ص 151.

4- فيها قضايا اجتماعية لها أثرها على صاحب السّيرة"[1].

فالسّيرة الغيريّة هي سيرة الآخر في أدب الكاتب، تميزها عن سيرته الذّاتية الخطورة التي قد يقع فيها، ما يلزمه أن يكون حريصا، فلا يُلبسها توجّهه ويُبعدها عن أحداثِها التّاريخية، أو يطمس توجّه صاحبها.

والنّاظر لهذين النّوعين من السيّر في الأدب يجد نفسه متسائلا عن جوهر الفرق بينهما والذّي لمسناه من خلال المقاربة بينهما إذ نجد "أنّ معظم الباحثين قد اجمعوا على أن أهم فرق بينهما، هو أن السّيرة الذّاتية يتم فيها التّطابق بين السّارد والشّخصية الرّئيسية والمبدع، أمّا السّيرة الغيريّة فلا يمكن أن يتطابق فيها المبدع مع الشّخصية الرّئيسيّة"[2]، وذلك لأنّ سارد سيرته الشّخصية له إلهام بتفاصيلها الدّاخلية والخارجية، أمّا سارد السيّرة الغيريّة فلا يتمكّن إلّا ممّا عُرض عليه.

كما أن السّيرة الذّاتية يصور لنا كاتبُها "مادة منتزعة من ذاته، لذلك فإنه يتعامل معها بحنوّ وعطف، أما كاتب السيّرة الغيريّة فإنه يستقي مادته من العالم المحيط، لذلك فإنه يقف منها موقف الشّاهد، أما كاتب السّيرة الذّاتية فعليه أن يؤذي دور الشّاهد والقاضي معا"[3]، وهذا ما يضع كاتب السيرة الغيرية في موقف صعب أمام الوقائع التي يسردها، وأمام القارئ الذي قد يكون مطّلعا عليها، ويمكن القول بأنّ "السّيرة الذّاتية نقل مباشر، أما السّيرة الغيرية- أي ترجمة حياة الآخرين- فإنها نقل عن نقل الشّواهد والشهادات والوثائق، وشتّان ما بينهما، ثم إنّ الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة"[4]، فإذا اعتمدت السّيرة الذّاتية على وعي صاحبها بذاته، فإنّ السّيرة الغيريّة تحتاج إلى بحث وتمحيص.

---

[1]- عماد علي سليم الخطيب: في الأدب الحديث ونقده عرض وتوثيق وتطبيق، مرجع سابق، ص 146.

[2]- تهاني عبد الفتاح شاكر: السّيرة الذاتية في الأدب العربي (فدوى طوقان وجبر إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا)، مرجع سابق، ص 18.

[3]- المرجع نفسه، ص 19.

[4]- عبد العزيز شرف: أدب السّيرة الذّاتية، مرجع سابق، صص (05، 06).

كما يعدّ عامل الزّمن عاملا فارقا مُهمّا بينهما وذلك أنّ "السيّرة الغيرية أسبق زمنا من السيرة الذاتية، لأنها ظهرت مع ظهور التّاريخ والأدب، فمنذ ظهور الحضارات، ظهر الكثير من الرجال الذّين يعيشون في بلاط الحكام والسّلاطين، فراحوا يدونون ما كان يحدث في زمانهم من تطور ونماء، فأرّخوا للسّلاطين والملوك، وللحروب والمحاربين ورجالات الدّول، وإنّ معظم هذه الأعمال تنطوي تحت مفهوم السّيرة الغيريّة"[1]، وأحسن مثال على ذلك ما عرفه العرب عن السّيرة النّبوية، ثم ما جاء بعدها من سيرٍ لأشخاص منذ القرن الرّابع للهجري.

4. مفهومُ روايةِ السيّرةِ الذّاتيّةِ:

تعدّدت تعريفات رواية السّيرة الذّاتية والتّي يقصد بها ذلك "القالب الفني الذّي يزاوج فيه الكاتب في عرض أحداث حياته الواقعيّة والشّكل الرّوائي، الذي يعتمد على السّرد والتّصوير، وإيجاد التّرابط والاتساق بين الأحداث الفنية، واستخدام الخيال استخداما محدودا في تجسيد هذه الأحداث الحقيقية واللّجوء إلى الحوار في تجسيم المواقف والكشف عن أبعاد شخصيته، وتحقيق المتعة الجماليّة في عمله الأدبي، ناهيك من استخدام اللغة ذات الطّابع التّصويري الإيحائي الذي يساعد على تجسيد الأحداث وتصويرها، مع حسن صياغة الأسلوب جملا وعبارات"[2]، فيعبر الكاتب عن سيرته الذّاتية بما تتضمنه من أحداث حياته داخل قالب الرّواية مراعيا جميع مكوناتها وعناصرها من خيال وحوار وتصوير، إلى أسلوب.

وهناك من عرفها بأنها "لجوء بعض كتاب الرّواية إلى الرّواية لكتابة سيرهم الذّاتيّة، أو لكتابة سيرة شخص آخر هو بطل الرواية وراويها الذي يسرد الحكاية ويروي الحوادث"[3]، فرواية السيّرة الذّاتية هي مزج الكاتب لكل من جنسي الرّواية والسيّرة، أي مزج الواقعي مع المتخيل من أجل الخروج بنص إبداعي، كما أن الرّواية ليست مجرد

[1]- ندى محمود مصطفى الشّيب: فن السّيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002، مرجع سابق، ص07.

[2]- شعبان عبد الحكيم محمد: السّيرة الذّاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، مرجع سابق، ص 75.

[3]- إبراهيم خليل: بنية النّص الرّوائي (دراسة)، الدّار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 291.

سرد لأخبار وأعمال وحوادث الكاتب بل: "عمل فني أدبي يترك أثره المنشود لدى المتلقي، يتساوى في ذلك ما يقدّمه الكاتب من حوادث وأخبار وذكريات طفولة وشباب"[1]، فالكاتب يمزج بين المكونات التّخييلية للرّواية والمكونات الذاتية للسيّرة فتنتج كتابة أدبية تُعرفُ برواية السّيرة الذّاتية.

إضافة لما لها من جماليات، تكمن في أنها "حالة سرديّة إبداعية تجعل السّيرة الذاتية مولودة من الوهم والتّخيل، أي من رحم الرّواية بكل ما تمتلكه الرواية من عناصر فنية، بحيث لا تتحقق أدبية السّيرة إلا من خلال روائيتها، كما أن روائية الرّواية لا يمكن أن تتحقق على المستوى النّفسي العميق وآلية الكشف والفصح للتّابوهات إلا من خلال الحفر في سيرية مبدعها المعيشية والثقافية والفكرية والجمالية"[2]، فالتكامل بين السيرة والرواية يأتي من التداخل في طريقة السّرد بينهما، والتعبير عن سيرة الشخص داخل الرواية يستلزم بالدرجة الأولى الرجوع لتتبع أحداثه في السّيرة الذّاتية.

[1]- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص21.

[2]- حسين المناصرة: وهج السّرد (مقاربات في الخطاب السّردي السّعودي)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ص 97.

الفصل الثّاني: تمثّلات الشّتات وبروز السّيرة في رواية "طفولتي حتّى الآن" لإبراهيم نصر الله

أولا/ تمثّلات الشّتات في الرّواية.

ثانيا/ سيرة الإنسان في الرواية.

أوّلا: تمثّلاتُ الشَّتات في الرّواية:

1. الشّتاتُ كنظام خِطابيّ ومعرفيّ متكاملٍ في الرّواية:

يعد خطاب الشّتات مرصدا هاما لتحديات وهموم الإنسان الفلسطيني في وطن ليس وطنه الجريح الذّي حل به الدّمار، وهو خطاب لمسناه على طول هذه الرّواية انطلاقا من عنوانها، مرورا بتقديمها ومتنها، وصولا إلى ختامها.

فالعنوان "طفولتي حتّى الآن" يحمل خطابا واسعا بدلالاته، ممتدّا من الطفولة إلى الآن، من ماضي "إبراهيم نصر الله" إلى حاضره، ولنا أن نتخيّل ما بينهما من أحداث ومجريات رسمت سيرته في الشّتات.

ثمّ المقدّمة الّتي توشّحت برسالة واتساب من "نور" الآن، وهي تسرّ له بمخاوفها، تقول:" أخاف على الماضي، أخشى ألاّ يعود ...إن لم نستعد الماضي فسنخسر المستقبل، محزن أن نحسّ أنّنا لا نملك من هذا العالم إلّا خوفنا على الماضي بعد أن أصبح وحده حياتنا المؤكّدة، مع هشاشة حاضرنا"[1]، فـ"نور" تعيش شتاتا ما في ذاتها، والكثير من الهواجس، فهذا الحاضر فارغ بالنسبة لها، وهو لا يماثل ماضي الطفولة والحلم، هذه الرسالة التي تلقاها " إبراهيم نصر الله" في المطار، وجهته "إيطاليا" زمن الوباء، "نور" أبدت مخاوفها بين شتات الماضي والحاضر، و"إبراهيم" اختار المطار مكان الانطلاق إلى وجهة ما، وذلك لما للمطار من دلالات الشتات، فالفلسطينيّ بعد النكبة زار كلّ المطارات ذهابا إلى المجهول، دون إيّاب إلى فلسطين.

ولأنّ الرّوائيّ دائما يتخذ من الخطاب السردي وجهة له لتوثيق آماله وآلامه، فهو يبني أوطانا مُتخيّلة جديدة في المكان الحاضر، مستمدة من مشاعره وحنينه لمكانه الغائب الذّي يمثل هويته وكينونته، مثلما نجده في رواية "طفولتي حتى الآن" "لإبراهيم نصر الله" الذّي صوّر من خلالها الغربة والبعد عن الوطن بسبب النّفي و الابعاد القسري من

[1] – إبراهيم نصر الله: طفولتي حتى الآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، الإمارات، ط1، 2022، ص07.

فلسطين، إذ يسرد يومياته ومراحل مختلفة من حياته داخل مخيم الوحدات بعمّان يقول: "أفضل أن أبدأ يومي بطائرة تحلّق لا بطائرة تهبط، كلّ تحليق يمنحني الأمل بيوم جديد"[1]، والطّيران بما يحمله من معاني الحرية والانطلاق، هو ذاته في منظور "إبراهيم نصر الله" رمزيةٌ لشتاتٍ لا حدود له، فهو لا يريد الهبوط والبقاء في مكان ما مجسدا التّبات الذّي ينافي الشّتات، ولكنّه يريدها طائرة لا مطار لها، وهذا شعور عميق بالضّياع وغياب الوجهة، تمثّل خطابا للشّتات، وتكاملَ معرفةً في هذه الرّواية.

إن الكاتب يعيش حريّة متخيّلةً صنعتها طفولتُه لا حدودَ لها، وكأنّه كسر حدود المخيم وقيوده واخترق أجواء الوطن، فتلك الطّائرة حتما وجهتها فلسطين، مكانه الأوّل، مكانه الغائب، لكنّها لا تستطيع الهبوط في مطاراتها، ومن وجهة أخرى لا يريدها أن تهبط في أرض المخيّم، إنّه يجسد بهذه الصّورة الشّتات والمجهول، إذ يسعى لإبراز انتمائه، وفي الآن نفسه يبحث عن الحريّة، ثم نجد للعاميّة حضورها في خطاب الشّتات لديه، تجسّدها الحوادث العائلية، تقول أمّ "إبراهيم" وهي تسرد له حنينها للأشخاص والأماكن: "شُو بَدِي أتْذَكَر لأتْذَكر؟ هو قليل اللّي عِشْتُه؟"[2]، معبّرة بالعامية البسيطة عن شتاتها وعدم قدرتها على القبض على ذاكرتها، وذلك بسبب ما عاشته من ظروف قاسية.

وهكذا لم ينقطع خطاب الشّتات في الرّواية، وهو يختتمها مثلما ابتدأها بكلام نور، تقول: "لا تقلق عليّ، ربّما عليكَ أن تقلق عليكَ، أنا فكّرت وتأمّلت وعشتُ الكثير، وأعرف أنّني انتصرت لأنّني أستطيع أن أشير إليكَ من بين كلّ البشر وأقول بصوت مرتفع: هذا إنساني. هل سأكون إنسانك؟ لا أعرف، ربّما تكون هالة إنسانك، ربّما تكون فدوى، ولعّها كذلك، ولعلّك إنسانها لأنّها خرجت من العتمة إلى النّور لتجعلك نفسك التي أردتها ولعلّه

[1]- الرواية، ص 09.

[2]- الرّواية، ص 34.

يكون إنسانا آخر سواهما، أنا. ولكن، لا تمت قبل أن تعثر على إنسانك"[1]، هذا كلام يختصر خطاب الشّتات، شتات في سبيل البحث عن الإنسان، فـ"إبراهيم" لم يجد إنسانه بعد، أو بالأحرى لم يستطع اختياره من بين كلّ العابرين والمؤثرين في حياته.

2. أسئلةُ الهويّة الفلسطينيّة في الشّتاتِ:

لعلّ ما أَلبس الرّواية الفلسطينية سحرا مُبهِجا هي وَكُتَّابَها تَوغُّلُهم في أغوار المنفى والتّهجير الذّي لامس الإنسان والأرض وكذا النّص، وانشغالها بجميع ما يمسّ الإنسان الفلسطيني من حرب وقتل وهدم وتهجير ومقاومة وشتات، هذا الأخير الذي هو نتاج سنين طوال من تدبيرات ومخططات استهدفت فلسطين كوطن وهوية وإنسان، ففي عام 1948م انتهى الشّتات اليهودي وبدأ الشّتات الفلسطيني.

ولأنّ الرّوائي الفلسطيني إنسان تغذّى على هموم ومآسي هذه الأرض بانتكاساتها وضعفها ونفي أصحابها ومقاومتها وتشتتها، نجد رواية المنفى ورواية المقاومة ورواية الشّتات التّي سميت بهذه التّسمية لتشتُّت أصحابها وانتمائهم لمجال الشّتات على مستوى الدّول العربيّة وصولا إلى دول الضّفة الأخرى الأوروبية، أو لتعبيرهم عن قضيّة الشّتات، وذلك لعدم قدرتهم "تأسيس علاقة مع الأمكنة الطّارئة، فهم دوما في حالة حنين للجذور وللوطن"[2]، المكان الأول فيصطدم التّشكيل الخطابي بتعارضات وأزمات اجتماعية وسياسيّة تتمخض منها علاقة متوترة بين الأقلية المشتتة وأغلبية سكان الدّول المضيفة، ليتحول المثقف المشتّت إلى ناطق باسم الأقليّة وحقوقها متطرقّا للعديد من الإشكاليات، كإشكالية الاغتراب والمقاومة والهويّة التّي سوف نُلامسها في رواية "طفولتي حتى الآن" لإبراهيم نصر الله.

[1] – الرواية، ص486.

[2] – رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشّتات: مرجع سابق، ص 117.

الهويّة في عديد المعاجم العربيّة من الفعل هوى، فـ "هوية تصغير هوّة، وقيل: الهويّة بئر بعيدة المهواة"[1]، ويقصد بها البئر العميقة، وهي من "الهواء: الجَوُّ، كالمهواة والهُوّة والأهويّة والهاويّة، وكل فارغ، والجبان وبالقصرِ: العشق يكون في الخير والشّر، وإدارة النّفس، والمهويّ، وهوت الطّعنة: فتحت فاها، والعقاب هويّا: انقضّت على صيد أو غيره، والشّيء: سقط، كأهوى وانهوى"[2]، ومنه نقول أن الهوية جاءت بمعنى هواء الجو والهاوية اسم من أسماء جهنم، كما أنها الحفرة العميقة.

وهي في "معجم اللّغة العربية المعاصرة" "بطاقة يثبت فيها اسم الشّخص وتاريخ ميلاده وكان مولده، وجنسيته وعمله، وتسمى البطاقة الشّخصية أيضا"[3]، وأعمق ما ورد فيها أنها "إحساس الفرد بنفسه وفرديته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكيّاته، وأفكاره في مختلف المواقف"[4]، فهي مرتبطة بذات الفرد وميزته.

وللهوية في الاصطلاح تعريفات متنوعة، "إنها كالبصمة بالنّسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطّمس والحجب، دون أن تجلى مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات"[5]، وإنها ما "يصمد من الإنسان عبر الزّمن، إذ تلازمه مكوّنة شخصيّته ومحدّدة معالمه بشكل ثابت، ممّا يمنح إبداعه طابعا خاصّا، فلا يكون مسخا للآخرين لهذا تعد شرطا ملازما للفرد يؤثر في الجماعة، ويمنحها سمة خاصة بها، لذلك لا نستطيع فصل "الأنا" عن "النّحْن" لأنّ الهوية تحقق شعورا غريزيا بالانتماء إلى الجماعة والتّماهي بها، فتتبادل معها الأعراف، وبذلك لا يمكن اختزالها في تعريف صاف وبسيط"[6]، لأنها تشمل معالمه

[1]– أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، مادة هوى.

[2]– مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مرجع سابق، مادة هوي.

[3]– أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربية، مرجع سابق، مادة هـ و.

[4]– المرجع نفسه.

[5]– محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثّقافية، دار نهضة مصر ،مصر، 1999، ط1، ص 06.

[6]– ماجدة محمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2013، ص 15.

وتحقق فرادة شخصيته، فهي "التّمشي الذي يقوم به الفرد لبناء مختلف مظاهر شخصيته سواء كانت هذه المظاهر حالية أو ماضية أم مستقبلية، وفي المظاهر التّي يحدد بها الفرد ذاته أو يقبل أن يحدد بها "[1]، ومنه فالهوية هي "مجموع السّمات والصّفات الجوهرية التي تجعل من الشّخص واعيا بكونه "أنا" متميزا عن الآخر، وأن الوعي بهذا "الأنا" لا يتأتى إلا من خلال الوعي بتميز وخصوصية الآخر، والهويّة ليست معطى جاهزا ثابتا يتوارثه الفرد جيلا عن جيل بل هي نسق من العناصر الوجودية والرّمزية المتحولة والدّيناميكية، مما يجعل منها سيرورة لا متناهية الإنجاز، ممتدة بين ما تحتفظ به ذاكرة الفرد وذاكرة الجمعية من خصوصية وتميز"[2]، أي هي مجموعة السّمات التّي تميز شعبا من الشّعوب متمثلةً في اللّغة والعادات والتّقاليد والمواقف المشتركة.

ولعلّ أوّل صورة تُظهر خطاب الشّتات الفلسطيني هي أسئلة الهويّة على تنوّعها، دينيّة، اجتماعية، لغوية، قوميّة، هذه الهويات التّي تعدّ أساس الشّخصية الفلسطينية.

أ. الهويّة الدّينيّة:

إنّ مفهوم الهويّة الدّينية يحيلنا إلى التّطرق إلى مفهوم الدّين الذّي يعدّ عنصرا أساسيا في تنظيم سلوكيات الإنسان، إضافة لكونه حجر الزّاوية داخل كلّ مجتمع، فهو "منظومة متكاملة من المعتقدات، ونمط للحياة ونشاطات طقوسيّة، ومؤسسات يستطيع الأفراد من خلالها إسباغ المعنى على حياتهم أو إيجاد معنى لها، وذلك بوساطة توجيههم نحو ما يمكن أن يعدّ مقدسا أو ذا قيمة عليا"[3]، وبما أنّنا سنلمس الدّين الإسلامي تحديدا فلابد من ضبط مفهوم للهوية الإسلامية التّي عرّفها "خليل نوري مسيهر العاني" بقوله أنها: "الإيمان بعقيدة هذه الأمة

[1]- سلطان بلغيث: تمظهرات أزمة الهوية لدى الشباب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، ص 350.

[2]- شريفة بريجة: مفهوم الهوية (النشأة والتّطور في تاريخ أروبا الحديث، مقاربة سوسيو–أنثربولوجية)، مجلة أنثربولوجيا، جامعة محمد بن أحمد، وهران 2، 2021، المجلد 7، العدد 2، ص 133.

[3]- آزاد علي اسماعيل: الدّين والصحة النفسية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2014، ص 19.

والاعتزاز بالانتماء إليها، واحترام قيمها الحضارية والثقافية، وإبراز الشّعائر الإسلامية والاعتزاز بها والتّمسك بها، والشّعور بالتّميز والاستقلالية الفردية والجماعية، والقيام بحق الرّسالة وواجب البلاغ والشهادة على الناس وهي أيضا محصّلة ونتاج التّجربة التّاريخية لأمة من الأمم وهي تحاول إثبات نجاحها في هذه الحياة"[1]، ومنه يمكن القول أنّ الهوية الإسلاميّة هي الإيمان والفخر بالانتساب للأمة الإسلامية من خلال أداء الشّعائر الإسلامية والتّمسك بها.

وقد حضرت الهوية الدّينية في هذه الرّواية بشكل لا بأس به، إذ عمّد الرّوائي إيرادها في مواضع عدة عن طريق شخصياتها التي تعتنق الدّيانة الإسلامية، حين قال: "ذات يوم عاد أبي إلى نومه بعد أن أدى صلاة الفجر"[2]، فالصلاة هي الرّكن الثّاني من أركان الإسلام وهي عمود الدّين وركنه المتين، فرضها الله عز وجل على المسلمين، وفي موضع آخر أوردها لتحديد الزّمن بدقة: "طرق المصري بابنا في اليوم المحدّد لقدومه، بعد صلاة العصر بقليل"[3]، رابطا زمن المسلم بأوقات صلاته، لأنّ الصلاة بأوقات تأديتها أعادت ترتيب التوقيت عند الشخص المسلم.

وفي موضع آخر يذكر الكاتب عبارة كانت أمه وجاراتها تردّدنها دائما "نوم الظّالم عبادة"[4]، وهي عبارة كثيرا ما نسمعها، وتعني أنّ الظالم عندما يغفو وينام يريح نفسه ومن حوله من شروره، فالنّاس يتمنون طولة نومه، "يحكى أن شيوخ المسلمين على زمن الغزو المغولي كانوا لا يجدون بأسا في أن يشرب جنود التّتار الخمر، لأن هذا وإن كان محرما إلا أنه يجعل الجنود ينشغلون ويفقدون التركيز ثم ينامون، وبهذا فإنهم يكفّون أذاهم لبعض الوقت عن

[1]- خليل نوري مسيهر العاني: الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، ط 1، 2009م، ص 45.
[2]- الرواية، ص 19.
[3]- الرّواية، ص 134.
[4]- الرّواية، ص 19.

العباد"[1]، وبرز جانب آخر من سمات الثقافة الدّينية السّائدة لدى المجتمع الفلسطيني حتى وهم في مخيمات الحصار والشّتات، يقول الكاتب "لم يجدوا لجدي مساحة قبر بجانب جدتي، دفنوه على بعد ثمانية قبور شمال قبرها"[2]، فتكفين الميت وحمل نعشه ودفنه من سنن الإسلام، إضافة إلى أنّ إكرام الميت دفنه.

ووردت كذلك الهوية الدّينية في أقوال كثيرة يرددها أهل المخيم وهم يمارسون حياتهم اليومية، نخص بالذكر منها قول "أم إبراهيم" –صاحب الرّواية– كلّ مرة كان يزورها فيها بعد أن مستها الشّيخوخة: "هل تعرف ما الذّي يشغل بالي؟ من سيدعو من أجلكم اللهَ إن مت؟"[3]، فدعاء الله والتوسّل إليه يبرز جانبا روحيا لطالما ارتبط وبديانة الإنسان ومعتقده.

ويسرد الكاتب مغامرة تعدّ قطرة من نهر، مغامرات "نور" التّي أصرت على الذّهاب إلى مدينة الزّرقاء لمشاهدة فيلم من بطولة ممثلتها المفضلة "فاتن حمامة" وتأخرت في العودة كثيرا، يقول: "وأعتمت الدّنيا، اعتمت أكثر، وبدا أن النّجوم ستنزل إلى الأرض للبحث عنها لفرط ما رفعت أمها الدّعوات إلى السّماء"[4]، وفي موضع آخر "نور" واصفة باريس "ضبابها الكثيف الذّي أخفى برج إيفل جعلني أحمد الله على أننا لم نذهب إلى لندن"[5]، ويصف كذلك دعوات جدته "خضرة" لخاله محمود يقول: "أعطته كل ما تملك وهي تدعو له: اللّهم وسّع أبواب الدّنيا

[1] أسامة غريب: نوم الظّالم، 2017/07/18، 21:03
https://www.almasryalyoum.com/newz/details/1164453

[2]– الرواية، ص 260 .
[3]– الرّواية، ص 34 .
[4] – الرّواية، ص 47 .
[5]– الرّواية، ص 15 .

قدّامه وين ما كان، وسمع الله دعوتها فوسّع له الطريق لكي يصل إلى الكويت"[1]، في زمن كان من الصّعب الوصول إليها عبر الصّحراء التي اختطفت أرواح من كانوا يتسللون عبرها.

ومن الأمور المتعارف عليها في الخِطبة الإسلاميةِ التّراضي بين الطّرفين أهل العروس وأهل العريس، ورضا والدها على إتمام هذه الخطوبة يقول "إبراهيم" : "غرقت في استعادة تلك الأحاديث قبل أن أسمع جدي "إبراهيم" يعلن بصوت مرتفع "الفاتحة"، ويبدأ بقراءتها علامة على القبول بالمصري زوجا لابنته"[2]، ففي ديننا الإسلامي من شروط صحة الزّواج وتمامه رضا الوليّ الشّرعي وقراءة الفاتحة.

ب. الهويّة الاجتماعيّة:

لكلّ مجتمع هوية تميزه عن المجتمعات الأخرى، وقد عرف "أليكس ميكشيللي" ALEX MUCCHIELLI الهوية الاجتماعية بقوله: "تشير إلى مجموعة المعايير التي تسمح بتعريف فرد أو جماعة ما على نحو اجتماعي، وهي بالتّالي المعايير التي تسمح للفرد باستحواذ وضعيته الخاصة في إطار مجتمعه، وبعبارة أخرى تعني الهوية الاجتماعية السّمات والخصائص التّي تضفي على الفرد من قبل عدد كبير من الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى في المجتمع"[3]، فلكل مجتمع عاداته وتقاليده وطبائعه وممارسته وقيمته التي تميزه أو تفرده عن المجتمعات الأخرى، "و"الهوية ليست كيانا يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد، إنها حقيقة تولد وتنمو، وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب"[4]، هذه العبارة الأخيرة تنطبق على الشعب الفلسطيني الّذي يعيش لاجئا في مخيمات الشّتات، إذ نجده حريص التمسك بعاداته وتقاليده وقيمه كتعويض منه لما فقده بعد أن اغتُصبت أرضه التي تمثل هويته.

---

[1]- الرّواية، ص 223.

[2]- الرّواية، ص223.

[3]- أليكس ميكشيللي :الهويّة، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطّباعية، دمشق، ط 1، 1993، ص 111.

[4]- المرجع نفسه، ص 07.

ومظاهر الهوية الاجتماعية كثيرة في هذه الرّواية تتجلى أولى ملامحها في ارهاصات خطبة "عمة إبراهيم" التي أحبت شخصا هو جارها في المخيم، لا أهل له إذ وجدت صعوبة في إقناع أهلها بقبوله صهرا لهم فقصدت زوجة أخيها "أم إبراهيم" لتساعدها، هذه الأخيرة التي تقول: "ما هكذا يتم الزواج، عليه أن يرسل أهله ليطلبوك من أهلك هذه هي الأصول"[1]، فتتجلى بذلك عادات وتقاليد الخطبة في المجتمع الفلسطيني والمتمثلة في قصد أهل العريس بيتَ أهل العروس وطلبها من أهلها على سنة الله ورسوله، وفي سياق حديثنا عن موضوع الخطوبة والزّواج يقول "إبراهيم": "أيام فلسطين كان يمكن أن يتزوج الولد قبل أن يصبح شابا"[2]، هكذا حدثهم صديقه "بشير" عن والده الذي تزوج قبل النكبة، وهو تلميذ لا يزال في الصّف السّادس الابتدائي، والذي كان الطّفل الوحيد في العائلة وسط خمس بنات، وهذه أيضا تعد عادة من عادات العائلة الفلسطينية أن تُخطب الفتاة للشّاب وهي صغيرة لم تبلغ سن الرّشد، ويكون ذلك دون علمها أو أخذ رأيها.

تظهر أيضا عادة من عادات المجتمع الفلسطيني إذ في كل مخيم من مخيمات الشّتات وحتى إن لم تتوفر داخل المخيم يتم جلبها من المخيم المجاور، وهي "الدّاية"، وإن صحّ وصفها بمُبِثَة البهجة في كل بيت دخلته، باعتبار أن انضمام مولود جديد للبيت هو بهجة لذلك البيت يقول "إبراهيم" "كل ما تحتاجه الدّاية كان جاهزا، الماء الساخن، الملاءات البيض النّظيفة، والغرفة التي أخليت من الزّوج والبنات والأبناء"[3]،فالداية أو القابلة أو المولدة كما يطلق عليها في مجمع الدول العربية هي سيدة تساعد النساء الحوامل وقت الإنجاب، كما تصف الأعشاب الطبية للوالدة، وتقوم بذهن المولود هو الآخر بخلطات منها زيت الزيتون، يقول "إبراهيم" تعليقا على والدته التّي دائما ما توبخه وتطلب منه ترك فراشه ووضعية السّحلية وهو منبطح على بطنه منغمس في الكتابة يقول:

[1]- الرّواية، ص 118.
[2]- الرّواية، ص 221.
[3]- الرّواية، ص 236.

"أحسست أمي أنني لن أنمو، وأن زيت الزيتون الذي ذهنت به جسدي وأنا رضيع سيضيع سدى، كانت تعتقد أن الزيت سيجعلني طويلا"[1]، فهذه العادات والموروثات المجتمعية القديمة المتناقلة من جيل إلى جيل لا يمكن تركها لأنها تشترك في التكوين الهوياتي للمجتمع الفلسطيني، ولا ننسى ذكر دور المرأة الفلسطينية المكافحة الصّابرة التي تعد مصنعا للرّجولة، لما لها من دور ولو قليلا في صنع سمات هوية هذا المجتمع المظلوم يقول "إبراهيم" عن أمه: "قِطَع الخبز التي تجف كانت تجمعها وتحولها إلى وجبة شهية بعد أن تنقعها قليلا في حساء العدس"[2]، وهذه صورة من صور الصمود، فلا يصعب على المجاهدة الفلسطينية النّضال من أجل توفير القوت لأولادها وإطعامهم ولو كان ذلك بإعادة تدوير الخبز اليابس وصنع وجبة لذيذة تسدّ رمقهم، يقول أيضا "إبراهيم"، في حق والدته التّي تناضل داخل مخيمات الشّتات "تلقي أمي قطع الصابون الصغيرة جدا في وعاء الماء الذّي يغلي لتنظيف ثيابنا القطع الصغيرة التّي لم يعد هناك مجال لاستخدامها في غسل اليدين أو الجسد لانزلاقها المتكرر"[3]، وهذا رصد للنضال والصّمود في مجتمع يبحث عن سبل لحفظ هويته.

ت. الهويةُ اللُّغويّة:

للغة دور بارز في حياة الإنسان الاجتماعية، هي ضرورية لأنها وسيلة للتّعبير عن نفسه وحاجاته ورغباته، وكذا التخاطب مع الآخرين، يعرفها "عبد الله مرتاض" بقوله: "اللغة هي التفكير وهي التخيل بل لعلها المعرفة نفسها بل هي الحياة نفسها، إذ لا يعقل أن يفكر المرء خارج إطار اللغة، فهو لا يفكر -إذن- إلا داخلها، أو بواسطتها، فهي التي تتيح له أن يعبّر عن أفكاره فيبلغ ما في نفسه، ويعبر عن عواطفه فيكشف عما في قلبه...

[1]- الرّواية، ص 29 .
[2]-الرّواية، ص 54.
[3]- الرّواية، ص54.

والإنسان دون لغة يستحيل إلى لا كائن وإلى لا شيء"[1]، ومنه فالعلاقة بين الإنسان واللغة علاقة وجود، فهو بدونها يتحول إلى لا شيء، وبغيابها يصبح لا وجود لكيانه ولا لقوميته، إضافة لكونها واحدة من أهم سمات أدب الشّتات، فهي المعبرة عن خيباته والمصورة لشتاته، وارتحالاته وتغرّبه ومشاكله في المخيمات والمنافي، ومع ارتحاله وتشتته فإنّ اللغة تُنفى وتُشتّت معه، لذلك يسعى الفلسطيني دائما للحفاظ على هويته من الاندثار في أماكن الشتات، واللغة هي أسهل أداة لذلك.

لذا كانت اللهجة العامية الفلسطينية حاضرة بقوة في سيرة "إبراهيم نصر الله" خاصة في الحوارات اليومية ومن أمثلة ذلك قول "أم إبراهيم" وهي تحكي المأساة التي حلت على ما كان سوف يكون أجمل يوم في حياتها، وهو عرسها: "إجَت الحزينة تفرح ما لْقَتَلْهاش مطرح"[2]، وفي مقطع آخر دار حوار بين إبراهيم وأمه تقول: "شو بدي أتذكر لأتذكر؟ هو قليل اللّي عشته؟ "[3]، ثم تضيف: "شوف أنا بعرف ما راح أشفى من أمراضي إلا لما أموت"[4]، معظم كلام أمه في الرواية كان باللّغة العامية، إضافة إلى محاولته إظهار واقعية وبساطة يوميات المشتتين في المخيم، وربما أراد أن يحفر كلمات أمّه حرفًا حرفًا في ذاكرته، فقد نقل كلامها حتى في لحظات الانفعال، تقول: " يا خوف قلبي إنك كنت هناك في الخلاء ولك كنت في الخلاء؟ "[5]، فـ "ولَكْ" تعد كلمة تحذير أو أداة تحذير في العامية الفلسطينية.

يبدو أنّه عمد إلى نقل كلام الكبار في السنّ كما هوَ دون تحويلِ تلك اللهجة الفلسطينية اليومية المعبّرة الى فصحى، و بالإضافة إلى أمه، تحضر في اللّغة "أمّ نور": "حابين تشربوا شاي ؟ ما تعبتوا من الحكي؟ ما عطشتوا ؟

[1]- عبد الله مرتاض: في نظرية الرّواية (بحث في تقنيات السّرد)، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1998، ص 53.
[2]- الرّواية، ص 138.
[3]- الرّواية، ص 34.
[4]- الرّواية، ص34.
[5]- الرّواية، ص 20.

جعانين ؟ أكيد إمك قلقت عليك ، بتفكروا إنكم راح تنجحوا السنة ؟ بِيْكفي، الصبح طِلَعْ "[1] ، و أيضا لغة الدّاية :"بتحكي من عقلك ، و إلا من ...؟ يا حبيبي اللّي صار صار، يلّا على بيتك قبل ما ازعل منك بصحيح، و الله لمجنون ولا جاهل ممكن يطلبوا هيك طلب "[2]، وجده الّذي لا يُخرج من فمه إلا كلاما موزونا، بل كلّه ردود بعد أن اعتزل الكلام وأصبح يرد فقط، وذلك منذ أن فقد كل شيء في النكبة من ممتلكات ورفض أولاده وبناته وزوجته "خضرة" سفره الى الشام ليتزوج هناك امرأة سورية أحبها، وفشل أيضا في إقناعهم لتكون وجهة تهجيرهم إلى هناك يقول :

"يا اللّي قسيت ... و حرّمت العشق شو تكون ؟

ما يحرّم العشق إلاّ الجاهل المجنون

لو حرّموا العشق شو يبقى حلال للناس؟

الميّ تحرم والهوا والقمح والزيتون "[3]

فبنية الرواية محفوفة بالتعدّد اللّغوي الذي يميز سردية الشتات، إذ تظهر في الرواية لهجة عامية أخرى وهي اللهجة المصرية عند المصري "جار إبراهيم" الذي أحبته عمته، وكان كل كلامه في الرواية بالعامية الصّعيدية المصرية، يقول سائلا "إبراهيم": "ليه عمتك ماعدتش تزوركم زي الأول"[4]، و"إبراهيم" على خطى عمته يجيب بنفس اللهجة "على شان الطريق صارت متعبة ليها زي مابيئولوا"[5]، عمته التي من يوم ما رأت المصري أصبحت لا تتكلم إلا

[1]- الرواية، ص 16.
[2]- الرواية، ص 234.
[3]- الرواية، ص 115 .
[4]- الرواية، ص 61 .
[5]- الرواية، ص61.

اللّهجة المصرية، "عمتي أصبحت تصر على الحديث معنا باللّهجة المصرية لتحسينها"[1]، يقول : "كانت تدهشنا وهي تسألنا بين حين وحين: "إزايك ياواد؟ إنت مكشّر كده ليه؟"[2]، ويظهر من خلال هذه المواقف تأثر المشتت بلهجة مشتت آخر وهما معا في وطن الشّتات.

ث. الهويّة القوميّة (الوطنية):

فَخْر الفرد بانتمائه لأمة معينة واعتزازه بأمته ومجتمعه هو ما يجعله يكتسب هوية قومية، والهوية القومية تستظل بظلها جميع الهويات السّابقة، الدّين، المجتمع، اللّغة وغيرها، إذ تعد بمثابة "صمّام الأمان الذي يحافظ على الوحدة والتماسك بين مختلف مكونات المجتمع على اختلاف تعدداتهم وانتماءاتهم وتساعد على التعايش والتكامل الاجتماعي وتمنح الفرد الاتزان والاستقرار وتؤدي إلى التآلف والتعايش والتسامح حتّى في الأوطان المتعددة الأجناس والثقافات الفرعية"[3]، فهي الحاضنة الشاملة للهويات الأخرى، والمدعّمة لها.

ونجد عبارة "يا رب يعني ضاعت البلاد ويضيع الأولاد"[4]، التي وصفت بها "أم نور" حالها وهي تنتظر عودة "نور" وأخيها في وقت متأخر من اللّيل ولم يعودا للبيت، فأصعب شيء في الحياة أن يفقد المرء هذين الاثنين أبناءه ووطنه اللّذين يمثلان روحه ودمه، ونجد أيضا قول "أمّ إبراهيم": "تذكروا مهما رأيتم من بلاد في حياتكم، فلن تروا أجمل من بلادنا"[5]، إذ إنّه من علامات الوطنية التعلق الشديد بالوطن مهما فسدت أحواله وتدهورت، والإحساس

[1]- الرواية، ص 44 .

[2]- الرّواية، ص 44.

[3]- سعود بن مبارك البادري، سيف بن بدر الكندي: واقع الهوية الوطنية لدى طلبة الصّف الحادي عشر بسلطنة عمان في إطار المستويات والفروق (تعليمية جنوب الباطنة أنموذجا)، مجلة العلوم الإجتماعية، جامعة الأغواط، 2018، المجلد 07، العدد31.

[4]- الرواية، ص 48.

[5]- الرواية، ص40.

بالانتماء إليه والافتخار والاعتزاز به، وهذا ما تحاول "أم إبراهيم" غرسه في ذهن أبنائها وتظهره في كلماتها المملوءة بالنزعة القومية.

ونجد قولا آخر "لأم إبراهيم" : "عشرة أبناء لا يستر أرواحهم في هذه الغربة وطن"[1]، فبدون الوطن يغدو الإنسان يتيما فمهما وفّر ووفرت له الغربة من ظروف حسنة فإن الحنين والشّعور بالشتات يبقى ملتصقا به، فالبلاد التي لم تنجبك لن تصنع هويتك فوطننا هو هويتنا أينما ذهبنا .

يقول "إبراهيم": "لم يكن هناك رضا على الإسراف في الاستماع للرّاديو لأننا نذّخره لأخبار كبيرة، ليست أغاني "أم كلثوم" منها، وأعظمها خبر عودتنا إلى فلسطين"[2]، فالفلسطيني في مخيمات الشّتات لن يُحيي روحه ويعيد له بهجته خبر سوى خبر العودة لدياره، وهذه من مقومات الهوية القومية التّشبث بقضيته وإبقائها دائما رهن التفكير والتّذكر.

تقول "أم إبراهيم": "تريد أن تذهب إلى معسكر الفدائيين، لن أمنعك من العيب علي أن أمنعك، فهؤلاء الذّين التحقوا بهم لهم أمهات أيضا، هم وأمهاتهم يحبون فلسطين وأنا أحبها مثلهم"[3]، فالأم الفلسطينية تضحي بنفسها، ومستعدة للتّضحية بأبنائها بإرسالهم لجيوش الفداء مقابل استرجاع هذا الوطن الجريح.

نجد أيضا قول "أب إبراهيم": "لن تخدم فلسطين كثيرا إذا ذهبت الآن، كل ما سيحدث أنك ستكون جاهلا مثلي، ستخسر مدرستك، أمّا فلسطين فستخسر إنسانا يمكن أن يعطيها أكثر لو أصبح متعلما"[4]، فأول خطوة لمحاربة أي استعمار هي العلم، فبه تتحرر عقول وفكر أبناء المستعمرات، ويحافظون على منابع الثقافة الإسلامية

[1]- الرواية، ص 34.
[2]- الرّواية، ص 42.
[3]- الرواية، ص 160.
[4]- الرواية، ص 160.

من الاندثار وينتشر الوعي بينهم، والعلم بحد ذاته جهاد للنّفس والجهل، ويضيف: "فلسطين بحاجة لأن تقدم لها شيئا أكبر من أن تترك مدرستك من أجلها"[1]، فالوعي بحدّ ذاته تحرّر للعقل، وبه يمكن بناء الأوطان وحمايتها واسترجاعها إن فُقدت.

لقد حفلت هذه الرواية بأسئلة الهوية على اختلافها، ونجح الروائيّ في إبراز الجانب الدّيني داخل هذا المجتمع في الشتات، وكيف كان المعتقد الديني الإسلامي يطبع حياة الفلسطينيّ ويحكم ممارساته اليومية، متغاضيا عن المعتقد اليهودي الذي كان مصاحبا وملازما للفلسطيني في مكانه الأصليّ، لكنّه انفصل عنه حين خرج منه، وكأنّ "إبراهيم نصر الله" يحاول أن يظهر غضبه واحتقاره وعدم تقبله له من منطلق أنّ المحتلّ قدم إلى فلسطين تحت لواء الدّين، كما أنّ خصوصية المجتمع الفلسطيني لم تغب عنه وهو في مخيمات الشتات، بل حمل معه أعرافه وتقاليده وعاداته في صورة تبرز انتماءه ومدى تمسّكه بوطنه، وكذلك تبرز حنينه، أمّا الهويّة اللّغوية التي جسّدتها العامية الفلسطينية بالدرجة الأولى فقد نقلت طريقة تفكير الفلسطيني، من منطلق أن اللغة مسايرة للفكر، فهناك أشياء لم يجد الروائي طريقة لإيصالها بغير العامية، وربما لم يجد لها مقابلا يحتويها بحمولتها الثقافية في الفصحى لتكون أشدّ وقعا في نفس القارئ، ولم يغيّب قوميّته إذ كلّ سطر من هذه الرواية يحكي رغبة جامحة في العودة إلى الوطن واسترجاعه وإعادة بنائه.

[1]- الرواية، ص 160.

3. المكانُ الأصليّ والمكانُ الطّارئ في الرّواية:

للمكان حضوره في الرواية وفي كلّ الرّوايات، لأنّه فضاء ملازم للشّخصيات، وهو الحاوي لأحداثهم، وله أثره الكبير في تكوينهم وبنائهم فلا يمكن أن تدور الشّخصيات خارج إطاره.

إنّ المكان الأصليّ هو "فلسطين"، منبت الشّعب الفلسطيني، وفي الرّواية يحيلنا "إبراهيم نصر الله" إلى فلسطين المكان، رغم أنّه ولد في "عمّان"، وأحداث روايته تدور في مخيمها، يقول: "طفلا عرفت القدس، مرّتين في العام، حين كنت وأبي نزور جدّي إبراهيم وأعمامي وعمّتي في "مخيم العزّة"، " في "بيت لحم"، لم يكن أبي يتركني هناك، خلفه أياما لأرف أكثر، بين مخيمين تأرجحت، وثلاث مدن: عمّان، القدس، وبيت لحم"[1]، فالمكان الأصلي فلسطين حاضر في كل تفاصيل الرّواية، لأنّ امتداد الكاتب وامتداد الشخصيات يصل دائما إلى المنبت، فإبراهيم دائما يحن إلى "القدس" المكان الذّي يزوره مرتين في العام وإلى مخيم "العزة" في بيت لحم أين يتواجد جدّه وأعمامه، إنّ "إبراهيم" متراوح بين مخيّمين مخيم "الوحدات" في عمان ممتدا إلى مخيّم "العزة" في فلسطين، وكأنّه يريد إثبات المكان الأصل في روايته، بالموازاة مع حديثه عن المخيّم مكانا طارئا، هذا الطارئ الذي صار أصلا، ف"إبراهيم" انبنت شخصيته وأحلامه في "مخيم الوحدات"، وتعرف على شخصيات الرواية المتفاعلين مع سيرته، إنه مكان له أثره، يقول: "الخيمة التي كانت أوّل غرفة دراسية لي"[2]، فقد أسهم في تعليمه، كما أسهم في بناء حلمه وبحثه عن الحرية، فجعل في المخيم لنفسه مطارا، وهو طفل ليسافر وهو شاب إلى "السعودية" مكانا طارئا ثانيا، إذ يقول: "لم تكن العودة إلى عمّان سهلة، وإن كان لعمّان صورة الجنة، طوال فترة وجودي في الصّحراء بعد فراقها لعامين، يغدو التأقلم، حتى مع الجنة صعبا"[3]، إن المكان الطّارئ في الرّواية على خصوصيته أصبح له وزن في

[1]- الرّواية، ص 163.
[2]- الرّواية، ص 199.
[3]- الرواية، ص 465.

ذات "إبراهيم نصر الله"، الذي صبغ أمكنته الطّارئة بشيء من التّآلف قائلا: "لا أدافع عن الأمكنة عبثا، بل لأنني على يقين من أن في كل مكان شيئا ما، لا يوجد في سواه، إن لم نكتشفه في لحظته تلك فهذا شكل من أشكال عمى المكان، مثلما نقول عمى الألوان"[1]، فالمكان دائما يترك شيئا مختلفا في ساكنه أو في العابر منه.

أخذ المكان –أصليا وطارئا– حيزا واسعا من الرواية، وكان حاضنا لسيرة الإنسان الفلسطيني في الشّتات، ففلسطين المحتلة ماثلة في وجدان "إبراهيم" وعائلته وأصدقائه، لا تفارقهم، هي هناك تنتظر يدا تمتدّ تنتشلها من جحيمها، هي الأصل الذي لا يجب أن يُطمس أو يُغيّب، والمخيّم على بؤسه حيّز مكانيّ آخر، طارئ أجبر "إبراهيم" ومن معه على تقبّله، وحاولوا أن يُبقوا أواصر الاتصال مع فلسطين قائما بأيّ شكل من الأشكال ولو كان متخيّلا، وذلك من أجل الاستمرار.

4. صورُ المقاومَة في الشّتَاتِ:

للمقاومة حضورها في اللّغة والاصطلاح فهي من الفعل "قاوم العدو: واجهه، وضاده قاوم الإغراء الظّالم/ البرد/ ميوله /الحاكم المستبد/ الطغيان/ العدوان/ الهجوم/ الضّربة، قاوم الرّجال الحريق، يقاوم بشراسه، قاوم الجسد المرض: قام برد فعل ليزيل تأثير المرض أو يخفف من ضرره"[2]، وهي في مدار المواجهة الضّدية: "عبارة عن فعل ينشأ نتيجة أوضاع راهنة يمكن أن نختصر هذه الأوضاع بمحاولة طرف ما سلب حريّة الاختيار لطرف آخر، بهدف القدرة على استعادة الحرية ويمكننا أن نعيد صوغ هذا التّعريف بطريقة أكثر تحديدا هي مسألة حركية راهنة عسكرية أو سياسية أو ثقافية، تنشأ كوسيلة لاستعادة حق وكرامة إنسانية"[3]، إنها تخصّ الإنسان على وجه

[1]– الرّواية، ص 465.

[2]– احمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مرجع سابق، (المجلد 1)، مادة ق و م .

[3]– علي كواري: مظاهر أدب المقاومة في ديوان نبوءات الجائعين "لأيمن العتوم"، مجلة الباحث، جامعة الإمام علي، إيران، 2020، ص 37.

الخصوص من أجل الاستمرار في تفكيره وشعوره وثقافته وتعلمه ودينه وإنسانيته، ومنه وجوده، هذا الوجود الذي تتجسد المقاومة لأجله في صور عدة منها:

أ- مقاومة المجتمع:

المجتمع هو "مجموعة من النّاس كثرت أم قلت يحدد علاقاتها نظام محدد وأفكار ومشاعر، ولا يحدد برقعة جغرافية أو حدود حيث يكون الهدف واضح المعالم وإن لم يكن اتصال بهم بشكل مباشر، لكن يبقون مجتمعا بحكم النظام والعقيدة والثقافة وماله علاقة بالقيم من السّلوك"[1]، ويتفاعلون فيما بينهم بشكل مستمر.

وتظهر في الرواية العديد من الحوادث حول مقاومة الشخصيات لمجتمع الشتات، وأصابع الاتهام التي تستقبلها والضّغوط والتضييقات التي تعترضها يوميا وهي تمارس حياتها في مخيمات الشّتات، ومن المواقف التي جسدت ذلك نظرة الازدراء والاتهام التي يتلقاها "إبراهيم" كل أسبوع مرتين من طرف المارين من جنبه وكل من رآه يسير في الشّارع، يقول: "مزهوا كنت أحمل العود، وأمضي إلى معلمي مرتين في الأسبوع في زمن كان يبدو فيه حمل آلة موسيقية في الشارع، مثل وجود طفل يتشكل في بطن فتاة عزباء"[2]، رغم ذلك لم يسلّم في شيء أراد تعلمه والغوص في عالمه، بل واجه نظرة المجتمع إليه وواصل تعلمه، كيف لا وهو الذي وقف في وجه أبيه وأمه وأخبرهم أنه قرر تعلم الموسيقي، أمّه التي رفضت قطعا الفكرة قائلة له: "وماذا ستفعل بالموسيقي التي ستدرسها ألا يكفيك الشّعر؟ هل ستنتهي طبّالا خلف سميرة توفيق؟ ألهذا نعلمك؟"[3]، يقول أيضا: "الجلوس في المقهى، الذّهاب إلى

[1]- محمد صالح البدراني: تعريف المجتمع (معالجة نفسية)، 2022/03/31، 15:16
https://www.rudawarabia.net/arabic/opinion/3102022

[2]- الرّواية، ص 289.

[3]- الرّواية، ص 286.

السّينما، التدخين من وراء ظهر الأهل والرسوب في المدرسة الحكومية لعدة سنوات، والذّهاب بالتّالي إلى مدرسة خاصة كانت كلّها من عظائم الأمور، لكن حمل العزباء أولا، يليه حمل آلة موسيقية ثانيا كانا الأكثر فداحة"[1].

يواصل "إبراهيم" تحدياته للمجتمع ونظرته للأشياء، وهذه المرة نظرة أستاذه "ربيع" لفكرة أن القصيدة التي قرأها يمكن نسبها لطفل لازال في مرحلته التّعليمية الإعدادية فلا يعقل من منظور الأستاذ ذلك، وهو المتعود على الاطلاع على قصائد في الكتب المدرسية لشعراء كبار ماتوا، أيعقل أن يكتب "إبراهيم" بنفس ذلك المستوى في التّعبير وتصوير الأشياء، يقول مخاطبا "إبراهيم" داخل القسم أمام جميع زملائه: "من المستحيل أن تكون كاتبها، حتى لو كنت تعرف القواعد والعروض فالقصائد شيء آخر، ليست مجرد لغة ووزن"[2]، تبرز هنا مقاومة "إبراهيم" للأستاذ "ربيع" الذّي هو جزء من المجتمع يقول : "المعارك الصغيرة المزعجة التي نضطر أن نخوضها، نظل غاضبين لأننا أجبرنا على خوضها حتى لو خرجنا منها منتصرين"[3]، فأفكار ومعتقدات المجتمع تضعك أحيانا داخل معارك لا رغبة لك فيها حتى أنك لا تدلي بأية ردة فعل سوى أن تستمع ثم تنصرف، فـ"إبراهيم" في هذه المعركة الإثباتية لم يحاول أن يثبت للأستاذ عكس ذلك وبأنه كاتبها لأنه أحسّ بالانتصار عليه، يقول: "كنت غاضبا رغم النّصر الذي حققته لأن شكه في القصيدة أكد لي أنني شاعر... إنّه لا يصدق أنني كتبتها لأنه بالتأكيد لا يستطيع أن يكتب مثلها"[4]، ففي خضمّ الصّراع مع الشّتات في المخيّم هناك صراع آخر مع المجتمع ومعتقداته.

[1]- الرّواية، ص 289.
[2]- الرّواية، ص 294.
[3]- الرّواية، ص 295.
[4]- الرّواية، ص 295.

ب– مقاومةُ الذّاتِ:

الذّات هي "النّواة التي تقوم عليها الشخصية كوحدة مركزية وديناميكية وأنها المعنى المجرد لإدراكنا لأنفسنا جسميا وعقليا واجتماعيا في ضوء علاقتنا بالآخرين"[1]، وفي ضوء تفكيرنا.

"إبراهيم" من الصّفحات الأولى للرّواية وهو في مقاومة ذاته التي تعالت على واقع الشّتات والتهجير، ومارست السّفر كهواية في مطار من خياله أقامه على تخوم المخيم: "على الحائط المقابل لبوابة بيتنا لوحة كبيرة أكبر من أي لوحة لحركة الطّائرات في أي مطار دولي"[2]، "إبراهيم" وهو يصارع ذاته ليصبح شاعرا، كان في دوامة كبيرة إذ إنّ الكتابات التي يكتبها يخبره كل من يقرؤها بأنها شعر، فدخل في ذلك الصّراع كيف أنّه شاعر يكتب الشّعر وهو على قيد الحياة، هذا لا يصلح فجميع الشّعراء الذّين قرأ لهم في كتبه المدرسية أموات، من بينهم "إبراهيم طوقان" الذّي أحبه وأحب شعره، فلا يجوز أن يكون من على قيد الحياة شاعرا، وهنا بدأت تخبطاته مع ذاته، وحاول البحث عن شاعر واحد حي ليعيد له بصيص الأمل ليصبح شاعرا وهو حي، وكان كلما كتب أتته لحظة إدراك أنه اقترب من الموت أكثر، إلى أن ذهب إلى مكتبة العاصمة رفقة صديقه "قاسم"، يخاطب الموظف: "وتجرأت وسألته: هل صحيح أن "فدوى طوقان" على قيد الحياة؟"[3]، يجيبه الموظف: "اطمئن حيّة"[4]، وهنا يبدأ صراعات جديدة، فكيف أن فدوى هي الشّاعرة الوحيدة الحيّة، إذن فالشّاعر يمكن أن يكون حيا، وهي أخت الشّاعر "إبراهيم طوقان" الذي أحبه وأحب شعره وهو يحمل نفس اسمه، فليكون شاعرا يجب أن يكون له أخت اسمها "فدوى"، يقول: "لكي أصبح شاعرا يجب أن تكون لي أخت اسمها فدوى"[5]، وبدأ محاولة إقناع أمه لتجعل

[1]– بن صغير كريمة، بومدين سليمان: مفهوم الذّات (مقاربة نفسية، حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2015،العدد 13، ص 34.

[2]– الرواية،ص04.

[3]– الرّواية، ص 153.

[4] –الرّواية، ص153.

[5]– الرّواية، ص 167.

منه شاعرا بمنحه "فدوى" يقول: "أعرف أنك ستنجبين بنتا ويكون اسمها فدوى، لأنني متأكد الآن من أنني سأكون شاعرا ولي أخت اسمها فدوى، مثل الشّاعرة "فدوى طوقان" أخت الشّاعر "إبراهيم طوقان"[1]، وهذا صراع مع ذاته البريئة.

وبعدها قرأ قصة قصيرة عنوانها "صوت الرّعد" وجدها مترجمة في إحدى المجلات الأدبية في مكتبة أمانة العاصمة، ومن كثرة ما أعجبته لخصها وعرف من المقدمة التي كتبها المترجم عن حياة المؤلف أنّ للكاتب أخت اسمها "رامونا"، يقول مخاطبا أمه: "أريد أن أصبح كاتب قصص وروايات"[2]، كأنها هي الوحيدة التي يمكنها مساعدته، تقول "تريد أن أنجب لك رامونا أيضا؟"[3]، ثمّ: "بعد روايتين قصيرتين انتبهت للموسيقي"[4]، فيقول: "بثقة مبالغ فيها أقلقت الجميع أعلنت أنني سأدرس الموسيقي بعد تخرجي من المدرسة"[5]، ليحتدم الصّراع.

إنّه صراع حاد مع الذّات، فـ"إبراهيم" منذ وعيه الأول التقى وجها لوجه مع ذاته فتعارض معها، وأصبح يتساءل كثيرا، ويريد أن يبلغ شيئا محددا، وصراعه هذا كان حافلا بينه وبينها بالأسئلة: هل يصير شاعرا، أم هل يصير روائيا، أم هل يصير موسيقيا، أم هل يصير مسرحيا، إنه الصّراع، صراع الذّات قبل كل شيء، فيقول: "الغريب أن تلك المسرحية أوقعتني، فورا في حب المسرح، كما وقعت في حب الشّعر بعد "إبراهيم طوقان"، وحب الرّواية بعد "براد بري"، وحب السّنيما بعد "غودار"، وحب الموسيقي بعد "بليغ حمدي"[6]، وكلّ هذا وهو في طور تكوين ذاته.

[1]- الرواية، ص 171.
[2]- الرواية، ص 275.
[3]- الرواية، ص 275.
[4]- الرواية، ص 285.
[5]- الرواية، ص 286.
[6]- الرّواية، ص 349.

ت– مقاومةُ الحدثِ:

الحدث من العناصر المهمة داخل بنية الرواية يعرفه "لطيف زيتوني" بأنه: "كل ما يؤدي إلى تغيير أمر أو خلق حركة أو إنتاج شيء، ويمكن تحديد الحدث في الرّواية بأنه لعبة قوى متواجهة أو متخالفة، تنطوي على أجزاء شكل حالات متخالفة أو مواجهة بين الشخصيات... الحدث الروائي صورة بنيوية يرسمها نظام قوى في وقت من الأوقات وتجسدها أو تتلقاها أو تحركها الشخصية الرئيسية"[1]، ويعني ذلك تدخل مؤثرات خارجية تؤدي إلى تغير ما أو ظهور شيء جديد في الرواية، ويقصد به أمرا لم يكن متوقعا.

وفيما يخص مقاومة الحدث نجد جميع الشخصيات في الرواية مقاومة للمستعمر، حتى وهي في الشّتات، إذ يعلّم الطفل الفلسطيني في عالم المنفى رغم صغر سنه معاني المقاومة، ويدرّس جيدا معنى الاستيلاء على الأرض دون حق ويعي جيدا من هو عدوه، يقول "إبراهيم": "في عالم المنافي يتعلم الأبناء بسرعة تفوق سرعة تعلم آبائهم، فهناك الأب الذي يبدأ عمله قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، وهناك الأولاد يعيشون كل ما يراه الأب خارج أسوار عمله"[2]، فالعدو بهدمه بيوتهم وتشتيتهم في المخيمات، سلب حريتهم واغتال فرحتهم، فلم يعد همهم الوحيد الذهاب إلى المدرسة واللعب فقط، إذ ثاروا مثلهم مثل الكبار بكل ما يحملون من قوة من أجل استرجاع وطنهم المسكين، يضيف "إبراهيم": "نور التي التحقت بدورة تدريب لا تشبه الدورات المعدّة للصغار، كل ما فيها كان يشير إلى أنها قررت أن تحرر فلسطين وحدها إذا اضطرت لذلك"[3]، فمنذ بداية الاستعمار لم يتخلّ الفلسطيني عن خيار المقاومة يقول قائد المعسكر مخاطبا الزهرات مطمئنا إياهم "فلسطين لن تبقى تحت

[1]– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرواية، مرجع سابق، ص 45.

[2]– الرّواية، ص 64.

[3]– الرّواية، ص 311.

الاحتلال ما دامت هناك أجيال جديدة ولدت وتولد"[1]، فالمقاومة الفلسطينية للحدث تجلت في ما يعيشه المشتتون في يومياتهم بتفاعلهم مع مختلف الأحداث التي لا تخرج عن أفعال المحتل وردهم عليها.

لقد تجسّدت المقاومة بمختلف ضروبها في الشّتات، انطلاقا من مقاومة المجتمع بأعرافه، ومقاومة الذات بتعقيداتها، وصولا إلى مقاومة الحدث الذي يتجدّد دائما مرتبطا بما يحدث في فلسطين، ولم يمنع بذلك الشتات "إبراهيم" والفاعلين معه النضال والصمود في سبيل الاستمرار.

[1]- الرواية، ص 266.

ثانيّا: سيرةُ الإنسانِ في الرّوايةِ :

وجود الإنسان يفرض سيرته، وسيرتُه تحدّد وجوده، وحين بدأ الإنسان رحلته وعبر بها ومن خلالها في الزمان والمكان، وقطع أشواطا كبيرة في ذلك، استأنس بالفكر واللغة، ففكّر وتدبّر ثمّ عبّر، وأعطى معا لم تحدّده وتخصّصه، فهو لم يكن يوما عابرا جسدا بلا روح، ولا قالبا بلا معنى.

1. سيرةُ "إبراهيم نصر الله"(الذّات الصّغرى):

"إبراهيم نصر الله" هو كاتب هذه السّيرة، وهو الشّخصية الرّئيسية التّي تدور جميع الأحداث والشخصيات في فلكها، وتترك انعكاسات أفعالها أثرا في حياته، هو من عائلة مثل العائلات الفلسطينية التي حرمت من أرضها وحرمت من تاريخها الطّويل، ولد في أحد المخيمات بعمان، مخيم الوحدات، لكنه عاش مشاعر النكبة جميعها من خلال أثرها الذي تركته في والديه.

طفولته كانت جد بسيطة بين مطاره الافتراضي واللّعب مع أصدقائه (بشير، قاسم، نور) والمخيم، بداية تعليمه يقول: "بدأ الأمر قديما حينما وقعت في يدي جريدة فلسطين التي أحضرها ذات يوم خالي "محمود" أثناء زيارة لنا... فتنتني تلك الكلمات الكثيرة التي لا أعرف معناها"[1]، ويضيف: "سألته عما فيها، فقرأ لي بعض الاخبار وأنا استمع إليه غير مصدق أن الكلمات السّوداء على الورق لها هذا الصّوت الجميل"[2]، ومن هناك احتفظ بالجريدة وبدأ ينقل تلك الحروف والكلمات على دفتره بدون أن يفهمها أو يعرف قراءتها، وما حدث أنه عندما دخل للمدرسة كان صاحب أجمل خط لا يحتاج سوى القليل من الدروس ليعرف القراءة.

[1]- الرواية، ص 28.

[2]- الرواية، ص 28.

التحق بمدرسة الوحدات الإعدادية التي كانت خيمة، وكانوا يجلسون على الأرض، وكان كتاب واحد يقرأ فيه الجميع، تلك الفترة الصّعبة ساهمت في دفعه إلى البحث عن كتاب خاص به، واكتشف أن هناك كتبا أخرى متنوعةً خارج المدارس، يقول:" الخيمة التي كانت أول غرفة دراسية لي، معلمة تدرسنا، ونحن على الأرض التّرابية التي تسلّل إليها ماء الشّتاء، فأصبحت طينية، لكن أحدا منا نحن التّلاميذ الصغار لم يجرؤ على أن يخبر المعلمة بالطين الذي تسلل برده وماؤه عبر ملابسنا، إلى جلودنا، كان الخارج طينا والدّاخل طينا وكنا نتحلق حول ذلك الكتاب، في تلك المدرسة الخيمة في ذلك الشّتاء القاسي، كما لو أنه موقد ذلك الدفء ما زلت أحسه حتى اليوم، كلما أمسكت كتابا"[1]، وهكذا انطلق "إبراهيم" في سيرته.

في بداية كتابته الشعر لم يتلق أي تشجيع "كان وجود أي كتاب لا علاقة له بالكتب المدرسية أمرا كبيرا، لم يكن هناك من يتمنى وجود أبناء قارئين لكتب غير كتب المدرسة فالكتب خطيرة في اعتقادهم، تتفجر في رؤوس الذّين يقرؤونها"[2]، حتى أستاذ العربية لم يصدق أنه هو من يكتب تلك الأشعار، كان يحب جدّا كتابة الشعر ومولعا بشعر "إبراهيم طوقان" ثم أصبح يحب قراءة الرّوايات، يقول: "بعد روايتين قصيرتين انتبهت للموسيقى"[3]، "إبراهيم" كان في مرحلة اكتشاف ذاته إذ كان يحب ويستمتع بجميع ما هو فن، "الغريب في الأمر أن الشّغف بكل شيء جميل، والذي لابد أنه ولد من ذلك الشعف بكل كائن يطير"[4]، فبعد الشعر والرواية أصبح في أعوامه الأخيرة من الثانوية العامة مغروما بالموسيقى حتّى أنّه كان متحمسا للتخرج من الثانوية العامة ليدرس الموسيقى في الجامعة إلى أنّ الواقع الاجتماعي للأسرة الصّعب لم يسمح له بذلك، فالتحق بالمعهد التّابع لوكالة الغوث، وحصل على ديبلوم في التربية وعلم النّفس بالرغم من أنه كان يريد أن يدرس الموسيقى لكن لم يحدث.

[1]–الرواية، ص 129.
[2]– الرواية، ص 195.
[3]– الرّواية، ص 285.
[4]– الرواية، ص 288.

انتقل إلى السعودية ومارس التدريس لمدة سنتين، عاش فيها فترة صعبة جدّا بسبب الأوضاع الاقتصادية المزرية لها أنداك، خاصة الجنوب الذي انتشرت فيه الأمراض المستوطنة مثل الملاريا التي حصدت أرواح الكثيرين من زملائه المعلّمين وكذا تلاميذه يقول: "عامان طويلان، لا أستطيع القول بأنهما مرا، لأنهما مقيمان فيّ حتى اليوم، عامان كحربي غير المتكافئة التي خضتها مضطرا مع مرض الملاريا، المرض الأسوأ على الإطلاق من بين كل الأمراض التي استطاعت اجتياح خطوط مناعتي"[1]، وكانت مرحلة في سيرته، ليشتغل في الصحافة بعد عودته إلى "عمّان"، لكنّها لم تكن له هدفا، يقول: "لم يكن التدريس هدفا أسعى إليه، أو أتمسّك به عشتُ خارجه، كما سأعيشُ أيضا خارج الصّحافة"[2]، وهنا يجسّد صورة لشتاته، وبعدها حظي بزيارات لعدة بلدان للمشاركة في مؤتمرات أدبية إلى غاية كتابته هذه السّيرة، يقول :"بالنّسبة إليّ أنا الّذي حظيت بزيارات لعدد من البلدان للمشاركة في مؤتمرات أدبيّة مثل بيروت ، دبي، عدن،،صنعاء، بغداد، ليبيا، مصر"[3]، ليستقرّ أديبا يسرد الأرض ومقاومتها، وسيرة الإنسان في الشّتات.

2. سيرةُ الشَّخْصيَات المُختلفةِ (الذّاتُ الكُبرى):

لم تقتصر هذه الرواية على سيرة "إبراهيم نصر الله"، بل هناك شخصيات أخرى كان لها دور فعال ومؤثر، برزت سيرها من خلال سيرته.

[1] – الرواية، ص 457.

[2] – الرواية، ص457.

[3] – الرواية، ص479.

–سيرةُ "نور":

نور من الشّخصيات المهمة في حياة الكاتب "إبراهيم نصر الله" التي شاركته كل طفولته وجميع أحلامه، لمَ لا نقول كل حياته، فهي تلك "الصغيرة ذات العينين الخضراوين، والوجه النحاسي، والشعر الأحمر الأجعد قليلا"[1]، كانت أجمل فتاة في المخيم، يقول "إبراهيم": "أكبر مني قليلا كانت نور بعام ونصف ربما لكنها أعلى مني بصفين"[2]، كانت "نور" الفتاة الأذكى في المخيم وبالتأكيد الأولى في صفها، بالرغم مما كانت تتلقه من زملائها وزميلاتها في المخيم منهم "رحاب" التي "عبرت لصديقاتها دائما عن أمنيتها في أن تنشق الأرض وتبتلع "نور"[3]، كانت "نور" تحبّ السّنيما بنفس درجة حبها لما يكتب "إبراهيم"، وذات يوم عرض فيلم من بطولة ممثلتها المفضلة "فاتن حمامة" و"إيهاب نافع" وكانت مصرّة أن تحضره، "بصعوبة وافق أخوها الكبير على الذهاب معها عندما أقنعته بأنها سترتدي بعض ملابسه، وتذهب إلى السّينما متنكرة بزي ولد"[4]، وحدث ذلك، فـ"نور" لم تفوّت الفيلم ومشاهدة ممثّلتها المفضّلة.

بعد النكبة ازداد عدد الناس في المخيم فانتقلت "نور" من المخيم إلى شقّة استأجرها والدها في سفح "جبل النّظيف"، لتنضمّ بعدها إلى تدريبات الفدّائيين، كانت "الأكبر سنا ممّن التحقن بالدّورة، استطاعت أن تطلق النّار بدقة شديدة على الهدف، لم تذهب أي من رصاصاتها هباء[5]، كرّموها عدة مرات.

وكما تمرّدت على جدتها وأمها والمديرة في المدرسة والأعين التي تنظر إليها غاضبة كلما سارت في الطريق مع "إبراهيم"، تمردت في المعسكر قائلة لقائد المعسكر: "أنتم تضحكون علينا، تدربوننا، ثم نجلس هنا لانفعل شيئا"[1].

---

[1]– الرّواية، ص 140.

[2]– الرواية، ص 16.

[3]– الرواية، ص 17.

[4]– الرواية، ص 46.

[5]– الرواية، ص 161.

وبعد مرور الأيام بدأت نور تكتشف أنها تحب التّمريض أكثر من أي شيء "فقفزت من حلمها في عمّان، فإذا بها في القاهرة طالبة طب"[2]، أحبت الطب كثيرا، "وجدت فيه مهنة نادرة تتيح لها أن تقول إنني أنقذت إنسانا فعلا، وإنني أراه يعود إلى الحياة بعد أن اخترقت رصاصة أو شظية جسده"[3]، وبعدها سافرت من القاهرة إلى لندن، يقول "إبراهيم": "تابعت حياة نور بأدق تفاصيلها، ولم تكن سعيدة بمن عرفتهم"[4]، واشتغلت في مستشفى خاص بامتيازات لا تليق بشهاداتها وخبراتها لكنها قبلت فلا خيار غيره، بعدها عادت "نور" إلى عمان تقول: "عائدة نهائيا أظن أنني ابتعدت أكثر ممّا يجب لا أريد أن أعيش أيّ نهاية جميلة أو حزينة بمفردي"[5]، فـ "نور" كما أبرزتها الرواية شخصية متمرّدة مندفعة تحبّ المغامرات لا تخاف السّقوط، وقد كان لسيرتها أثر بارز في سيرة "إبراهيم"، كونها أقرب شخص إليه.

–سيرةُ أمّ إبراهيم (عائشة):

شخصية مناضلة ومكافحة من أجل تربية أولادها وتدريسهم، عاشت جميع مراحل النكبة في فلسطين، قبل زواجها، وحتى يوم زواجها، لم يمر على خير، إذ تم اعتقال جميع من في الحفل، فاضطرت هي وزوجها والد "إبراهيم" إلى الهجرة إلى "عمّان" وسكنوا المخيم.

تقول مخاطبة "إبراهيم": "هل تعرف كم هو صعب أن تدعو الأمّ الله كي يحفظ لها عشرة أبناء لا يستر أرواحهم في هذه الغربة وطن"[6]، كانت دائما تحكي لإبراهيم وإخوانه وأخواته ما حصل لهم، وحجم المعاناة التي

[1]– الرواية، ص 266.
[2]– الرواية، ص 379.
[3]– الرواية، ص 379 .
[4]– الرواية، ص 465.
[5]– الرواية، ص 483.
[6]– الرواية، ص 34.

عاشوها لترسخ ذلك في أذهانهم، وتبقى قضية وطنه الذي تعرض شعبه لأبشع مظاهر الظّلم راسخة في ذهن كل جيل جديد، تقول مخاطبة أبناءها: "أريدكم أن تتذكروا ما حصل لنا وأريدك أنت، أنت بالذات أن تتذكر، أتعرف لماذا؟ لأنك كبير، ووحدك الذي يمكن أن يُذكّر أخواته وإخوته بما عشناه إن حصل لي أو لأبيك –لا سمح الله– مكروه"[1].

كانت "أمّ إبراهيم " امرأة محبة للعلم جدا كارهة للجهل، فمع كل التعب الذي تتعبه في تدريس ومراجعة الدروس لجميع أبنائها، أثبتت نجاحها وتفوقها في صفوف محو الأمية، ورغبتها في التحرّر من قيود الجهل، لقد كانت واعية ومناضلة لا تعرف الاستسلام، تتطلّع إلى العودة إلى أرضها وتأمل أن تدفن فيها، يقول إبراهيم: "في نهاية حياتها أصبحت نصف حزينة، ربما كان السّبب هو السّأم... وإدراكها أنها لن تعود إلى بيتها الأول قبل موتها"[2]، لقد كانت مثالا لسيرة الأمومة الفلسطينيّة، في انتمائها وصمودها، "أمّ إبراهيم" هي أمّ كلّ الفلسطينيين بل هي فلسطينُ ذاتُها.

–سيرةُ "فَدْوى":

"فدوى" هي أخت "إبراهيم" الصّغرى، ويمكن القول بأنها الأخت الأكثر تأثيرا في حياته مقارنة بباقي إخوته، ربما لأنها ولدت بالذّات في مرحلة هو بحاجة فيها لأخت اسمها "فدوى"، لإثبات شيء ما لنفسه وللشّعر، في حوار دار بينه وأمه حول إمكانية مناداته لإحدى أخواته بـ"فدوى" بدل انتظار بنت جديدة لتولد، يقول لها: "هكذا سأغش الشّعر، أريد "فدوى" أصليّة، مش تقليد"[3]، فهو يريد أن يكون شاعرا مثل "إبراهيم طوقان"، وينقصه جدا أخت اسمها "فدوى"، يقول واصف إيّاها: "كانت أجمل طفلة في المخيم وضواحيه، والأحياء التّي

[1]– الرواية، ص 34.
[2]– الرواية، ص 136.
[3]– الرواية، ص 215.

تصل إلى قلب العاصمة"[1]، كان ينظر إليها كأنها تلك المعجزة التي ستجعل منه شاعرا، يضيف: "بين انشغالاتي بفدوى، حبا وتنظيفا، وكتابة قصائد لها كلما غفت، فتنني تأمّل نومها الغزلاني"[2]، كانت فدوى من أولوياته بعد كتابة الشّعر، يقول: "أصبحت أم فدوى، بطريقة ما والمشرف عليها، صحيح أنّ أمي لم تسمح لي أن أحمّمها خوف انزلاقها من بين يدي، لكنّني كنت أنظّفها، أغسل فوط الأقمشة التّي نلفّها بها، انشرها، وأطويها كما يطوي جندي ثياب قائده"[3]، "فدوى" حلم شاعر، وسبيل نجاته، لها سحرها وأثرها في "حياة إبراهيم" قبل ولادتها وبعدها.

–سيرةُ والدِ "إبراهيم":

والد إبراهيم شخصية بسيطة، عاش طوال عمره بسيطا يحمل في قلبه حزنا اتجاه وطنه، يقول "إبراهيم": "هو الأمّي الذي ما حلم بشيء مثلما حلم بأن يكتب اسمه ويكتب اسماءنا مثل طفل بدفتره"[4]، بعيد كل البعد عن المشاكل، يقول "إبراهيم": "لم أره في أيّ يوم من الأيام في حالة شجار مع أيّ إنسان"[5]، مشيرا لكونه شخصية مسالمة.

عاش مرحلة ما قبل زواجه وحيدا، فبعد موت أمّه قبل النكبة، اضطرّ بسبب زوجة أبيه التي كانت سيئة معه إلى ترك البيت والرحيل، يقول "إبراهيم": "حزن أبي على جدتي لأمّي فاق حزن أبنائها ربما أخوالي، لا تفسير لدي سوى أنّ أبي جرّب اليتم، وعانى منه طويلا"[6]، لقد اشتغل طوال حياته كيْ لا يجوع أبناؤه، عمل في مصنع للتّبغ ورغم أنه لم يدخن سيجارة في حياته إلاّ أنه أصيب بالرّبو بسبب غبار التّبغ، يقول "إبراهيم": "أبي الذي لم

[1]– الرواية، ص 274.
[2]– الرواية، ص249.
[3]– الرواية، ص 255.
[4]– الرواية، ص 24.
[5]– الرواية، ص 228.
[6]– الرواية، ص 253.

يدخن في حياته أبدا لكن التبغ قتله"[1]، زار جميع الأطباء ولم يجدو له علاجا، ثمّ يضيف على لسان والده : "لم أكن أريد أن أصدّق أن الغبار تراكم في رئتي، على مدى ثلاثين عاما لأمنحكم به حياة بلا جوع وبلا مذلة، كان طول الوقت هو الموت"[2]، بعدها بيومين مات، ولم يتعمّق "إبراهيم" في سرد سيرة والده كما فعل مع أمّه الّتي حرص على كلّ تفاصيلها، ونظنّ ذلك بسبب طبيعة الحياة الصّعبة في المخيّم، والّتي حتّمت على الأب الخروج بحثا عن قوت أولاده، وهذا لم يغيّب سيرة الأب عن سيرة ابنه.

-سيرةُ "بشير":

صديق "إبراهيم" المقرب يقول عنه: "أمّا بشير فكان أنحف مني، رأسه بحجم رأسينا إلا قليلا، تتميز ذراعه اليسرى بعضلة قوية وراحة قوية وأصابع سميكة"[3]، كان الولد الأكثر تحديا وشجاعة داخل دائرة أصدقائه، كما أنه كان أشد الكارهين للمدرسين، يقول :"وعندما ذكرته أن أباه مدرس، صمت طويلا قبل أن يخبرني أن أباه غير ذلك وربما يعود السبب لكونه يدرس خارج البلاد، ولأنه لا يراه أكثر من سبعين يوما في العام خلال إجازته الصيفية"[4]، فغياب والده المدرّس عنه باستمرار جعله يحقد على كلّ المدرّسين، وزاد كرهه حين طلب منهم أستاذ اللغة العربية رسم حديقة بيوتهم بالكلمات، فلم يعرف كيف يكتب، يقول: "في النهاية قررت الكتابة عن حوض نعناع صغير زرعته أمي في أبعد زاوية في الحوش"[5]، بعد قراءة الأستاذ لذلك وبخه، يقول: "كرهته كيف يطلب مني أن أرسم حديقة بيتي في الوقت الذي سرقوا فيه منّا البيت"[6]، بشير كان يحب الكتب والقراءة ويكره

[1]- الرواية، ص 419.
[2]- الرواية، ص 420.
[3]- الرواية، ص73.
[4] الرواية، ص 89.
[5]-الرواية، ص 89.
[6]- الرواية، ص 89.

المدرسين، كان أفضل ولد في المخيم في تعامله مع أمه "يساعدها في الجلي، الغسيل، ونشر الثياب"[1]، التحق بالجامعة الأردنية، كانت أحلامه واضحة: "سأزور" الحياة التي عشتها في الكتب"[2]، كان طيلة مرحلة الجامعة لا ينفق المال سوى على شراء الكتب خاصة منها كتب أدب الرحلات، بعد الجامعة سافر إلى السّعودية ليعمل مدرسا، بعدها سافر إلى نيويورك، "فوجئ بأضواء نيويورك كما لم يفاجأ بشيء من قبل، أضواء تكفي لإنارة مخيم الوحدات وربما مدينة عمّان بأكملها وربما الأردن بأكملها"[3]، بعد "نيويورك" استقر في "بيروت" لفترة قبل أن ينتقل لدمشق بعد الحرب، والمحزن أن بصره نقص لدرجة أنّه لم يعد قادرا على السير لوحده، أو قراءة الكتب التي يحبها، رجع إلى عمان وراح يفقد بصره، يقول: "ما الذي يمكن أن أفعله بآخر ما تبقى لي من قوة إبصار، قبل أن أفقد نظري تماما؟ أجبت نفسي: سأترجم هذه الرواية إلى الإنجليزية، وهذا ما فعلته"[4]، سيرة "بشير" لازمت سيرة "إبراهيم" منذ الطفولة وتفاعلت معها، هو من أصدقائه المقربين في المخيّم، عاشا الظروف نفسها.

–سيرةُ "قَاسِم":

"قاسم" هو الآخر صديق "إبراهيم" في المخيم، "كان قاسم أبيض بعينين عميقتي السّواد... أقصر ممن هم في عمره... مكتنزا قليلا، ولولا شعره الكستنائي الناعم لظن كل من رآه أنه أجنبي"[5]، عندما كان في بطن أمه وكانت تعاني من آثار الحمل ذهبت للمركز الصحي التابع لوكالة الغوث أعطوها دواء للحد من الغثيان، وكان الدواء ذاك يوزع على اللاّجئين، لكن لا أحد لاحظ مبكرا التزايد في حالات الأطفال الذين يولدون مشوهين في تلك الفترة من بينهم "قاسم" الذي ولد بيد واحدة، وليست هذه مأساته الوحيدة بل أمّه تركته بعد ولادته عند

[1]– الرواية، ص 93.
[2]– الرواية، ص 379 .
[3]– الرواية، ص 400.
[4]– الرواية، ص 478.
[5]– الرواية، ص 73.

جدته وانتقلت للعيش في الكويت، يقول عن جدته: "أخبرتني أنّ أمي صغيرة وأنها لم تكن قادرة على تربية ولدين يفصل بينهما عشرة أشهر"[1]، استردته أمّه وانتقل معها للعيش بالكويت، عمل في وكالة الأنباء بعد تخرجه، و"قاسم" في الرواية يمثّل فئة من الأطفال الفلسطينيين الّذين ولدوا بعاهات نتيجة الأدوية والغازات السامة التي يطلقها المحتلّ، وهي سياسة صهيونية بهدف القضاء على النسل الفلسطيني، وهو كذلك يمثّل الإنسان الذي يحارب الظروف ولا يستسلم لهم .

-سِيرةُ "نبيل":

"نبيل" صديقهم الخامس، يقول "إبراهيم": "أما نبيل فكان أقصرنا، جبهة عريضة وفم صغير لم يكن بهذا الحجم قبل موت أمه"[2]، لم يكن ينطق أي كلمة طول الوقت يحدق في اللاّشيء ويفكر، كان انطوائيا، أصيب بصدمة نفسية بعد فقدان والدته، بعد الثانوية درس تخصص الطب في إيطاليا، أصبح ناشطا سياسيا له حضور قوي في أوروبا.

-سيرةُ جدّة "إبراهيم" (خضرة):

امرأة قوية جدّا، واجهت جميع الظّروف الصعبة، من الوطن الذي يضيع كل يوم أمام عينها، إلى زوجها الذي أحبّ امرأة أخرى، ويعد حاضرا غائبا في الوقت نفسه في حياتها، تقول: "أتركوه يروح وين ما يروح، الله يسهل عليه اللي فات من عمري وعمره أكثر بكثير من اللّي ظل، اللّي عشته معه بيكفّي، واللّي راح يعيشه معها

[1]- الرواية، ص 80.

[2]- الرواية، ص 73.

إن شاء الله يكفيه"[1]، ماتت في يوم من أيّام الربيع، عادت إلى بيتها وصلت وقفت تصلي صلاة العصر ركعت وسجدت وبقيت مكانها.

– سيرةُ جدّ "إبراهيم" :

كان قبل النكبة على وشك الزواج من امرأة سورية، وقد فعل المستحيل من أجل إقناع أولاده لتكون وجهة تهجيرهم إلى هناك إلى سوريا، يقول "إبراهيم": "أولاده بتحريض من جدتي قالوا له بوضوح: إذا ذهبت فانس أن لك عائلة هنا"[2]، وما زاد الطين بِلّة أنّه فقد جميع أملاكه بعد النكبة فمن الأكيد أن أهل المرأة سيرفضونه، ومنذ ذلك الحين أصبح شخصا صامتا لا يتكلم، مغمورا بحزنه.

بعد وفاة جدة "إبراهيم" جمع جميع الأبناء حوله وأخبرهم بأنه رعى أمهم حتى اللحظة الأخيرة، وأنه قرر السفر إلى دمشق ليرى تلك المرأة التي يعرفون جميعا عنها، اكتشف أن جواز سفره ضاع منه، لم تكتمل رحلة بحثه عنه ومات.

–سيرةُ عمّة "إبراهيم":

سمينة كانت، ناعمة الملامح، وجهها جميل، يقول "إبراهيم": "لا تجاعيد فيه لا ترهل، كوجوه الأطفال"[3]، تعيش بـ"بيت لحم" وتُكرر الزيارة لبيت أخيها بمخيم الوحدات، كانت مأخوذة بسماع أغاني "أم كلثوم" عبر الراديو، كانت معجبة بالمصريّ جارهم بالمخيم، حتّى أنها جعلت من اللّهجة المصرية لهجة ثانية لها، كانت حنونة جدا، دافئة، محبة للفرحة، صانعة لها، تزوجت المصري، استشهد وترك طفلا في بطنها، بعدها بسنوات ماتت.

[1]– الرواية، ص 148.
[2]– الرواية، ص 110.
[3]– الرواية، ص 38.

-سيرةُ المصريّ:

رجل على مشارف الأربعين من عمره، يسكن على بعد أربع بيوت من بيت "إبراهيم" بالمخيم، يعرف فيه باسم "المصري"، يحب "مصر" جدا، "عبد الوهاب"، "أم كلثوم"، "فريد الأطرش"، أصبح يتحدث اللهجة المصرية كنوع من المزاح إلى أن اتقنها، واعتمدها لهجة رسمية له، سافر إلى مصر وبعد عودته "توّج بإطلاقهم عليه لقب "المصري"، وهو لقب رآه يفوق لقب امبراطور"[1]، تزوج عمة إبراهيم، انضم لجيوش المقاومة، واستشهد، وسيرة " المصريّ" على بساطتها تحمل دلالات عميقة، فهو شخص انصهر في شتاته إلى درجة تبنيه لهجة غيره، وانتشائه بلقب "المصريّ"، وكأنّه يبحث عن جنسية ما بعد ضياع جنسيته في ظلام المخيّم.

-سيرةُ خال "إبراهيم" (محمود):

يعمل في مؤسّسة المواصلات، هو من الشّخصيات الّتي بثت الأمل في "إبراهيم"، بأنّه يمكن للشاعر أن يكون حيا، إضافة لفدوى طوقان، انتقل إلى الكويت واشتغل في إذاعة الكويت معدا لبرنامج رومانسي، يقرأ فيه قصائده يقول، "إبراهيم": "التي كان كثير منها موجها إلى الفتاة التي يحبها كما اعترف لي"[2]، بعدها انتقل إلى السويد، ونشر عددا من الدواوين الشعرية بالسّويدية، و"بعد أن تجاوز الخامسة والسّتين لم يعد يكتب إلّا عن البحر"[3]، كان دور بارز في بناء شخصية "إبراهيم" الأدبيّة وسيرتها.

[1]- الرواية، ص 70.

[2]- الرواية، ص 223.

[3]- الرواية، ص 498.

–سيرةُ الأستاذ "سليم" (أب بشير):

طويلا كان وعريضا، يقول "إبراهيم": "بشير حدثنا عن أبيه الذي تزوج قبل النكبة وكان في الصف السادس الابتدائي"[1]، كان الولد الوحيد بين خمس أخواته، تزوج بعد أن وعده أبوه بتزويجه في نهاية العام الدراسي إذا أثبت أنه أفضل تلميذ في صفه وذلك ما حدث، قبل عام من النكبة تخرج ونال منحة الدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت لكنه وجد عائلته تنتظره ليعيلها، فتوجه إلى "الكويت" معلما، وبعدها إلى "أبوظبي"، ثم رجع إلى "عمّان" وعمل مدرسا للغة العربية في إحدى المدارس القريبة من مخيم الوحدات.

–سيرةُ "هالة":

هالة أجمل فتاة في المعهد رغم أنها ليست من طالباته، يقول "إبراهيم": "كانت أشبه بلعبة، بأوسع عينين خضراوين في الدنيا، في ابتسامتها سحر قادر على الاستحواذ على الجميع"[2]، تعيش داخل المعهد في بيت أبيها الذي يعمل في المعهد، أعجبت "بإبراهيم" وشعره وأعجب هو بها، في إحدى المرات قالت له: "هل تعرف أنك أول شاعر حيّ أراه أمامي في حياتي؟"[3]، سافرت إلى "أمريكا" بعد حصولها على منحة في بعثة لدراسة الهندسة، عادت لـ"عمّان" لكن أهلها رفضوا زواجها من "إبراهيم"، وخاصة أخاها.

–سيرةُ عاملِ المكتبةِ:

نحيل ذو نظرة سميكة، يحبّ "إبراهيم طوقان" مثل "إبراهيم نصر الله"، دائما ما يبهر "إبراهيم" عن الشّعر والشعراء والكتب والحياة كلّما سأله سؤالا بسيطا، يقول "إبراهيم": "تجرأت في ذلك اليوم وسألته: من أنت؟

[1] الرواية، ص 221 .

[2]– الرواية، ص 413.

[3]– الرواية، ص 414.

أنا من ذلك النوع المختلف من الشعراء، شاعر ولكنني لا أكتب الشّعر"[1]، أسهم هذا الرجل في بعث الشاعر الذي يريد أن يخرجه "إبراهيم".

كانت سيرة "إبراهيم" سيرة محوريّة في الرّواية، لكنّها لم تكن الوحيدة، إذ تفاعلت معها سير مختلف الشّخصيات، وأسهمت في بنائها وبناء سيرة الإنسان الفلسطيني عامة، وقد نجح الروائيّ إلى حدّ كبير ومبهر في رسم "السيرة" بالأدب ، سيرة "إبراهيم" وأفراد عائلته، وسير أصدقائه ومعارفه، وحاول إبراز أثر كلّ سيرة في تفاعلها مع "السّيرة" المحورية.

3. سيرةُ الشّعبِ الفلسطينيّ (الذّات الكلّية):

إنّ الحديث عن سيرة الشعب الفلسطيني في هذه الرواية هو مجموع السّير التي اشرنا إليها في بحثنا، انطلاقا من سيرة "إبراهيم نصر الله"، إلى سير أفراد عائلته وأصدقائه وأساتذته، ومختلف الشّخصيات الأخرى التي تفاعلت وساهمت في بناء سيرته، ومن ثمّ سيرة شعبه الفلسطينيّ.

إنّ سيرة الشّعب الفلسطيني بارزة جدا في الرواية، هي سيرة في الشتاتِ، شتاتِ الإنسان قبل أيّ شيء، سيرةٍ تتشابه أطرافها، فالفلسطينيون بشكلٍ ما يدورون في فلك الوطن المسلوب، وفي فلك المخيمات المستقبِلة، وفلكٍ من المشاعر والرُّؤى، وظروفٍ واحدة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، ومصيرٍ واحد، وطموحٍ واحد، وهدف واحدٍ هو استرجاع الأرضِ والخروجِ من الشّتات.

سيرة الشّعب الفلسطيني هي سيرة "إبراهيم"، وأمّه وأبيه، وسيرةُ "نور" و"قاسم" والأستاذ "سليم" وأمثالهم من أبناء هذا الشّعب، هي سيرة شعب يرى الموت ويعيشه كل لحظة من ولادته إلى وفاته: "الحزن نصف الموت،

[1]- الرواية، ص 219.

قالت أمي، وإذا طال يصبح الموت كله لم نكن نحب أن نعيش أمواتا، لسنا نحن فقط، بل كلّ الناس، كل أولئك الذّين هجّروا، الذّين طردوا من أرضهم وبيوتهم، ولذا، يوما بعد يوم بدأ الشوق للفرح يتسرّب إلى أنفسنا، كنّا جوعى، جوعى ليوم لا نكون فيه موتى، أو نصف موتى"[1]، هي سيرة يطبعها الحزن بشدّة، سيرة شعب فقير "فكل أسرة كبيرة في المخيم، لديها بحر من الفقر، تتقاذفها أمواجه"[2]، ما يعكس صعوبة الحياة في حاجة دائمة ومستمرة لأبسط حاجيات الإنسان، لكي يبقى حيّا.

وهي سيرة شعب تشتت أوّل مرة حين أُخرج عنوة من أرضه وسلبت منه منازله واستوطن المخيمات، ثم تشتّت مرّة ثانية حين: "انتقل كثير من سكان المخيم إلى المناطق المحيطة به، باحثين عن بيوت أوسع، بعد أن تزايد عددهم عاما بعد عام، بل يوما بعد يوم"[3]، وذهب بحثا عن حياة أفضل، وإنْ وجدها في مناطق أخرى إلاّ أنه ظل يدُور في فلك شتاته، وخير دليل تلك التسميات التي تطلق عليه إذ يصف "إبراهيم" الأساتذةَ الّذين ماتوا في الصحراء السعودية بسبب الملاريا وهم جميعهم ليسوا من ذلك البلد، يقول: "رغم ذلك يوصفون بأنهم وافدون، تعطي عمرك لكل من حولك، وتكون وافدا حفنة ريالات مقابل سنين من عمرك وتبقى وافدا، مقابل حياتك وتموت وافدا، كم هو الثمن الحقيقي لسنتين كاملتين من عمر الإنسان؟[4]، إنه شعب ظلّ يحافظ على قيمه، متضامنا حتى وهو في شتات المخيمات يقول، "إبراهيم": "بعض الأسر في شارعنا والشوارع الموازية له، كانوا يقتطعون من طعامهم صحنا ويرسلونه إلى المصري"[5]، شعب يلحّ على البقاء دون أنانيّة، البقاء معا قوة متّحدة،

[1]- الرواية، ص 136.
[2]- الرواية، ص 393.
[3]- الرواية، ص 364.
[4]- الرواية، ص 464.
[5]- الرواية، ص 60.

لأنه يعلم أنّ استرجاع الأرض لن يكون بالتّحزّب والتفرّق، فقد أُخرج منها كتلة واحدة بُعثت لتضيع في الشّتات، لكنّه يقف دائما في وجهه، لا يريد التشتت أكثر.

إن سيرة الشعب الفلسطيني بارزة، حاضرة في الرواية بكل تفاصيلها وأثقالها، هي سيرة أطفال فلسطين في الحرمان، وسيرة آبائهم في الشّقاء، هي سيرة الأمومة الفلسطينيّة في أسمى مراتب التضحية والصّمود والحبّ والوفاء، وسيرة شباب مقاومين مجاهدين كلٌّ على طريقته، منهم من حمل السّلاح ومنهم من حمل القلم، سيرة الشّعب الفلسطينيّ سيرة محمّلة بهموم الهويّة والحقّ الضائع والرغبة في الاسترجاع، هي سيرة الأحياء والأموات، سيرة من ولدوا ومن لم يولدوا بعد، حاول الرّوائيّ رصدها بتفاصيلها ونجح في ذلك من خلال رسم طفولته حتّى الآن كما أراد في عنوانه، مؤكّدا أنّ الفلسطينيّ هو وجه من أوجه فلسطين وإن ولد وعاش خارجها.

لقد حملت رواية " طفولتي حتّى الآن " سيرة الشّعب الفلسطيني وأخرجتها في قالب أدبيّ مؤكّدة العلاقة الماثلة بين الأدب والإنسان، هذا الأدب السّلاح في يد المظلومين والمضطهدين في وجه الطّغيان، قاوم من خلاله " إبراهيم نصر الله" ولايزال.

4. سيرةُ المكانِ الحاضرِ والمكانِ الغائبِ :

المكان هو الفضاء الأكثر تلاصقا بالشّخصيات داخل الرّواية، والمليء بأحداثهم وسلوكاتهم، فمن الصّعب تخيل عمل روائي دون مكان لصعوبة وجود شخصيات وأحداث خارج إطاره.

أوجد "إبراهيم نصر الله" في رواية "طفولتي حتى الآن" عنصر المكان على نوعين، أمكنة حاضرة أراد بها "عمّان" مدينة شتاته والمخيم بيت شتاته، فسرد وصور هذا المكان الطّارئ، يقول: "عرفت عمّان مدينة حياتي

كما لم أعرف مدينة أخرى"[1]، فهي أول مدينة فتح عليها عينيه وبنيت فيها جميع تصوراته وأحلامه على غرار بقية الشّخصيات المحيطة به كأمّه وأبيه، وجده وجدته، وباقي أفراد العائلة الذّين أخرجوا من ديارهم وطردوا من وطنهم فلسطين، فكانت "عمّان" مدينة شتاتهم، "إبراهيم" لم يهجّر قسرا من وطنه لأنّه ولد بعد النّكبة، إلا أنّه نشأ مشتّتا داخل عائلة مشتّتة في وطن ليس وطنهم، وهذه أسمى صور التّشتت.

يقول "إبراهيم": "الخيمة كانت أول غرفة دراسية لي"[2]، فالخيمة هي الجزء الصّغير من ذلك المخيم الكبير، الذّي بالرّغم من كونه مكانا طارئا لجميع من وطأه، إلّا أنه احتضنهم واحتضن جميع أحداثهم وقصصهم وحتى هذيانهم ليلا بوطنهم الجريح فلسطين، فرغم أنّ المخيم "موقع يتعايش فيه اللاّجئون مع الفقر والإحباط والبؤس لكنه مكان تتجدد فيه أيضا إرادة الصّمود والتّحدي وانتظار الفرج"[3]، وهذه صورة أخرى للتمسّك بالبقاء، لقد أصبح المخيّم يضجّ بالحياة، يضيف "إبراهيم": "لفرط ازدياد عدد النّاس، لم يعودوا قادرين على رؤية بعضهم البعض، أصبح المخيم مثل مزرعة دجاج"[4]، يمثل المخيم حاضر "إبراهيم" وجميع شخصيات الرّواية، فجل أحداث سيرة حياته دارت هناك.

أمّا المكان الأصليّ فهو "فلسطين" والذي كان حاضرا دائما في تفكير وفي جميع أحاديث سكان المخيم الذين عاشوا كلّ أيامهم في المخيم ينتظرون العودة إليه، يقول "إبراهيم": "عندما راحت صحة أمي تتدهور بعد عقود، في كل مرة تنسى ما حولها، لعشر دقائق أو أكثر، لا تتحدّث خلالها إلاّ عن بيتها وطفولتها في فلسطين،

[1] –الرواية، ص 63.

[2] – الرواية، ص 129.

[3] –إبراهيم خليل: بنية النّص الرّوائي (دراسة)، مرجع سابق ، ص 139.

[4] – الرّواية، ص 71.

كل يوم تسافر في الزّمن تطلب من أحدنا أن يحضر لها تينا من حوش بيتها هناك"[1]، فأمّ "إبراهيم" في حنين دائم للمكان الأصل، وإلى وطنها، وإلى بيتها وحوش بيتها.

يضيف "إبراهيم" عن أمّه الّتي كانت دائما تقول لهم: "تذكّروا مهما رأيتم من بلاد في حياتكم، فلن تروا أجمل من بلادنا"[2]، ففلسطين تبقى أجمل مكان لشخصيات الرّواية الذّين انتظروا دائما يوم العودة إليه، والعودة إلى ديارهم والتّخلص من الشّتات.

إنّ سيرة المكان الحاضر "مخيّم الوحدات" بـ "عمّان"، وسيرة المكان الغائب "فلسطين" هي سيرة شعب عانى كثيرا هنا وهناك، وهي سيرة لا يمكن تجاوزها ونحن نرصد سير شخصيات تفاعلت بأحداثها في المكانين واقعا وخيالا، استطاع "الروائيّ" تجسيدها وهو يسرد سيرته، فالمخيّم حاضر في واقعه منذ ولادته، ترعرع وتعلّم فيه ، كما أوجد لنفسه فيه مطارا خاصّا وكأنّه يريد الهروب بأيّ طريقة والتحرّر من قيوده، لقد كان مكانا "طارئا" لكنّه منحه أسس بناء شخصيّته، والصورة الّتي هو عليها الآن، فرغم حالة الاختناق في شتاته نجد "إبراهيم نصر الله" ممتنّا لمخيّم الوحدات الذي جعله مقاوما بطريقته، يحمل القلم شاعرا وأديبا يمجّد الأرض ويحتفي بالصّمود في وجه محتلّ اغتصب أرضَه "فلسطين"، مكانَه الأوّلَ والأصلَ المُغَيَّبَ قسْرا عن واقعه، الحاضر في خياله وروحه، يشغل تفكيره، فـ "فلسطين" المكان المقدّس الجميل مُرادٌ ينشُدُهُ أبناؤه، وهو مكان ظلّ "إبراهيم" على صلة به من خلال المطار المتَخيّلِ برحلته الأولى التي حتما هي "فلسطين"، ومن خلال عائلة والده التي تعيش هناك في "مخيّم العزّة" بـ "بيت لحم"، ومن خلال والدته التي لم تغب "فلسطين" عن أحاديثها مجسّدة في العامية الفلسطينية ، وهي الّتي ماتت بحسرة الدّفن في ترابها، وعاشت تحدّثهم عن جمالها، وتزرع فيهم حبّها، وتعدهم باسترجاعها، "فلسطين"

[1]- الرواية، ص 41.

[2]- الرواية، ص 40.

المكان الغائب، حاضرة في وجدان "أمّ إبراهيم" وكلّ الأمّهات في الشّتات، ومنه حاضرة في وجدان "إبراهيم " ووجدان أمثاله من أبناء الشّتات.

لقد سرد الروائيّ سيرة الحضور والغياب في المكان وفي الشّتات، ونجح في الرّبط بينهما وبين سيرته وسيرة الإنسان الفلسطينيّ.

خاتمة

خاتمة:

لقد كان البحث في الشّتات و سيرة الإنسان في رواية "طفولتي حتى الآن لإبراهيم نصر الله " ثريًا زاخرا بتمثلاتهما ،فالشّتات طَبَعَ الشّخصية و لازمها في الأمكنة حاضرة و غائبة من خلال تكامل الخطاب وأسئلة الهوية وصور المقاومة ،وذلك كله في ارتباط وثيق بالسّيرة فردية و جماعية بسرديتها و فنيتها من سيرة فردية "لإبراهيم نصر الله " في علاقتها بسير الشّخصيات الأخرى ،الى تمثُّل سيرة الإنسان مع سيرة المكان.

حاولنا من خلال هذه الدّراسة أن نتمثّل الشّتات وسيرة الإنسان في رواية "طفولتي حتى الآن لإبراهيم نصر الله"، فأجملنا النّقاط الآتية:

– الشّتات ممارسة كونيّة قديمة قدم الإنسان، تسهم في بناء وعيه ومعرفته وتميّز نظرته للحياة.

– أدب الشّتات نوع من الأدب كتب بعيدا عن وطن الكاتب، ورصد وضعية عدم الاستقرار واللاّثبات التي يعيشها بظروفها ومتغيراتها.

– يعد أدب المنفى النّواة التي تشكل منها أدب الشّتات بعدّه الأول جزءا من الثاني. إذ إنّ تجربة المنفى تخلق حالة التّشتت.

– السيرة من أعرق الفنون النثرية في الأدب العربي، جسدتها أوّلا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعدها سير الصحابة التابعين.

– أدب السيرة يحيلنا إلى العلاقة بين الأدب والسيرة فهو نوع أدبي جامع بين التّحري التاريخي والإمتاع القصصي.

– رواية السيرة الذاتية جنس أدبي يجمع بين خصائص نوعين أدبيين هما الرواية والسيرة في قالب فني يعطيها خصوصية وفرادة.

– تمثل الشتات وبرزت السيرة في رواية طفولتي حتى الآن.

– الشّتات نظام خطابي ومعرفي متكامل في الرواية جعله الكاتب مرصدا لتحديات الإنسان الفلسطيني وهمومه، وموثقا لآلامه به يبني أوطانه الجديدة المخيّلة رغبة في العودة والاسترجاع.

– تعددت أسئلة الهوية الفلسطينية في الشتات ما بين الهوية الدينية والاجتماعية واللغوية والقومية.

– للمقاومة صور في الشتات تجسدت من خلال مقاومة المجتمع وأعرافه، مقاومة الذات وميولها، مقاومة الحدث على تنوعه.

– رصد "إبراهيم نصر الله" سيرة الإنسان في الرواية من خلال سيرته الذاتية وسير الشخصيات المرافقة له، وسيرة الشعب الفلسطيني عامّة، فسيرة الإنسان في الرواية من سيرة هؤلاء.

– سيرة الإنسان تجلت من خلال سيرة المكان حاضرا وغائبا، طارئا وأصلا، فالإنسان يسير في المكان بتقلباته وظروفه وأزمنته فيخلق سيرته ومن ثمة يخلق سيرة المكان.

ومجمل القول أنّ رواية "طفولتي حتّى الآن" رواية تمثّلت الشّتات وحفلت بالسّيرة، شتات الخطاب وأسئلة الهويّة فيه، والمكان حاضرا وغائبا وكيف انبعثت منه المقاومة بصورها المختلفة، وسردت سيرة الإنسان انطلاقا من سيرة الروائيّ إلى سيرة الشخصيات المتفاعلة معه، وصولا إلى سيرة الشعب الفلسطينيّ في المكان.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

– القرآن الكريم.

– المصادر:

1– إبراهيم نصر الله: طفولتي حتى الآن، الدار العربية للعلوم ناشرون، الإمارات، ط 1، 2022.

المعاجم:

1– أبو الفضل جمال الدّين محمد بن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ط، د س .

2– أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، د ط، 2008م.

3– الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، دب، د ط، د س.

4– عبد النّور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 1، 1979م.

5– لطيف زيتوني: معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي، إنجليزي، فرنسي)، دار النهار للنّشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2002م.

6– مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، د ط، 2008م.

7– مسعود جبران: الرّائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7، 1992م.

– المراجع:

1– إبراهيم خليل: بنية النص الروائي (دراسة)، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010.

2– إحسان عبّاس: فن السّيرة، دار الشرق، عمّان، الأردن، ط 1، 1996.

3- أحمد جميل عزم وآخرون: قضية فلسطين ومستقبل المشروع الوطني الفلسطيني (في الهوية والمقاومة- القانون الدّولي)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2015، الجزء 1.

4- آزاد علي إسماعيل: الدّين والصّحة النفسية، المعهد العلي للفكر الإسلامي، بيروت، ط 1، 2014.

5- أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطّباعية، دمشق، ط1، 1993.

6- تهاني عبد الفتاح شاكر: السّيرة الذاتية في الأدب العربي (فدوى طوقان وجبر إبراهيم جبرا وإحسان عبّاس نموذجا)، المؤسسة العربية للدّراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002.

7- جلال الدين محمد بن أحمد المصلي وجلال الدّين عبد الرّحمان بن أبي بكر السّيوطي: تفسير الجلالين (مع أسباب النّزول)، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، د س.

8- حسن محمد عبد الغني: التراجم والسّير، دار المعارف، د ب، د ط، 1995.

9- حسين المناصرة: وهج السّرد (مقاربات في الخطاب السّردي السّعودي)، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ط 1، 2010.

10- خليل نوري مسيهر العاني: الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثّقافية، مركز البحوث والدّراسات الإسلامية، بغداد، ط 1، 2009.

11- رامي أبو شهاب: في الممر الأخير سردية الشّتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2017.

12- شعبان عبد الحكيم محمد: السّيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (رؤية نقدية)، الوراق للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 2015.

13- عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذّاتية، مؤسسة الاهرام للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 1998.

14- عبد القادر الشّاوي: الكتابة والوجود (السيّرة الذّاتية في المغرب)، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان، د ط، د س.

15- عبد الله مرتاض: في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السّرد، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 1998.

16- عز الدّين إسماعيل: الأدب وفنونه (دراسة ونقد)، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 9، 2013.

17- عماد علي سليم الخطيب: في الأدب الحديث ونقده (عرض وتوثيق وتطبيق)، دار المسير، د ب، دط، دس.

18- فيليب لوجون: السيّرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

19- ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2013.

20- ماجدة حمود: النقد الأدبي الفلسطيني في الشتات، مؤسسة عيبال، دب، ط1، 1992م.

21- مايكل كوبرسون: فن السيرة في العربية (عصر المأمون نموذجا)، تر: محمود محمد مكى، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005.

22- محفوظ كحوال: الأجناس الأدبية والنثرية والشعرية، دار نوميديا للنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، 2007.

23- محمد الباردي: عندما تتكلم الذات (السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث)، اتحاد الكتاب الغرب، دمشق، د ط، 2005.

24- محمد صالح الشنطي: فن التحرير العربي (ضوابطه وأنماطه)، دار الأندلس للنشر والتّوزيع، السعودية، ط 5، 2001.

25- محمد عبد الغني حسن: التّراجم والسير، دار المعارف، د ب، د ط، 1955.

26- محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، دار نهضة مصر، مصر، ط1، 1999.

27- يحي إبراهيم عبد الدّايم: التّرجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، د ط، د س.

- **المجلات:**

1- مجلة اللغة الوظيفية، جامعة يحي فارس، المدية، المجلد 9، العدد 1.

2- مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الأغواط، 2018، ، المجلد 31، العدد 07.

3- مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة.

4- مجلة أنثربولوجيا، جامعة محمد بن أحمد، وهران، 2021، المجلد 07، العدد 02.

5- مجلة ريحان للنشر لعلمي، مركز فكر للدراسة والتطوير، 2021، العدد 16.

6- مجلة الباحث، جامعة الغمام علي، إيران، 2020.

7- حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، 2015، العدد 13.

8- مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، 2020، المجلد 14، العدد 20 .

9- مجلة المدونة، المجلد 05، العدد 01 .

10- مجلة عود النّد، 2022، العدد 26.

– الرسائل الجامعية:

1- ندى محمود مصطفى الشّيب: فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2006 .

–الدّواوين:

1- محمود درويش: ديوان محمود درويش، دار العودة، بيروت، 1978، المجلد 2 .

- **الرّوابط الإلكترونية:**

1- أسامة غريب: نوم الظّالم، 2017/07/18، 21:03.

https//www.Almasryalyoum.com/news/details/1164453

2- محمد صالح البدراني: تعريف المجتمع معالجة فلسفية، 2022/03/31، 16:15.

https//www.Rudawarabia.Net/arabic/opinion/31032022

الملاحق

الملاحق:

1- مخّلص الرّواية:

تنطلق أحداث الرواية من مخيم الوحدات بعمان، وهو المخيم الذّي ولد فيه "إبراهيم نصر الله"، وقضى فيه طفولته مع عائلة منكوبة، من أب وأمّ وإخوة ثمانية، يحكي فيها "إبراهيم نصر الله" عن نفسه، عن طفولته وعن حياته، بدءا بيومياته التي يقضيها طفلا متنقلا بين شوارع المخيم، يلعب مع أصدقائه، إلا أنه كان له خيال واسع بداية بالمطار الذي خلقه لنفسه أمام البيت، وكل يوم يسافر بخياله إلى دولة معينة رفقة صديقته "نور" التي كانت أقرب بنت إليه ، يخبرها بكل أفكاره، وهي الأخرى لا تتوانى أبدا عن تشجيعه، إضافة لبشير وقاسم صديقه.

حكى كيف أنه فتن بالكرة الأرضية منذ أن وضع أستاذ الجغرافيا مجسمها على الطاولة وبحركة صغيرة من إصبعه دارت الأرض فراحت تقترب بلاد وتبتعد أخرى، ما دفعه إلى إنشاء مطار خاص به في السّاحة الموجودة أما بيته وجعل بوابة البيت هي بوابته.

حكى عن مدرسته التي كانت خيمة وكيف يجلسون على الأرض محيطين بكتاب واحد، وفي الشتاء على الطّين، ومع المدرسة يبدأ حبه لجميع القصائد الموجودة في الكتاب المدرسي خاصة قصائد "إبراهيم طوقان"، فيبدأ الكتابة، تارة يصف "نور" وجمالها، وتارة مشاعره وأحلامه في أوراق ويعطيها "لنور" التي كانت قارءته الوحيدة، لا تمل من إنتاجه الغزيز، فيوميا كان يكتب، ومع الأيام عرف أن خاله "محمود" شاعر، لم يصدقه في الأول، فلا يمكن للمرء أن يكون شاعرا وهو يتنفس وعلى قيد الحياة، فالشعراء الذّين قرأ لهم وأحبهم كلهم أموات، وهذه هي الفكرة التي كانت في ذهنه حول الشّعراء، وما إن اعترفت له "نور" بأنه شاعر مبدع، بعد قراءتها لآخر ورقة أعطاها لها، راحت تتخبط أفكاره، وبدأت رحلة بحثه عن شاعر واحد على قيد الحياة، يرجع له الأمل في أنه

يمكن أن يكون شاعرا وخاله، إلى أن علم من خاله "محمود" أن هناك الكثير من الشّعراء لازالوا على قيد الحياة ولازالوا يكتبون من بينهم "فدوى طوقان" التي هي أخت الشّاعر "إبراهيم طوقان"، ومن هنا تبدأ رحلة جديدة في إقناع أمه بأن تنجب له "فدوى"، وكل أفراد عائلته راحوا يساعدونه في إقناع أمه التّي ترفض قطعا اختتام إنجابها ببنت.

وفي ظل أحداث الطفولة يُفقد الموت "إبراهيم "كلّا من جدته "خضرة" التي تمثل المرأة الفلسطينية المقاومة لجميع ظروف الاستعمار والتّهجير والشّتات الذّي عاشته، حتى في علاقتها الزّوجية مع جده "علي" الذّي أحب دائما امرأة أخرى من دمشق، ماتت جدته وهي ساجدة تصلي صلاة العصر، وجده "عليّ" الذي مات وهو واقف بعد أيام وأيام من رحلة بحثه عن جواز سفره الضّائع بعد قراره السّفر ليلاقي المرأة التي أحبها، و"المصريّ" زوج عمته الذي مات شهيدا بعد انضمامه لجيوش المقاومة بشهور.

بعدها تأتي المرحلة التّي يتخرج فيها "إبراهيم" وكل أصدقائه من الثّانوية العامة، وترمي الظروف كل واحد في بلد ما ليكمل رحلة شتاته، ما عدا هو وبشير.

"قاسم" نقلته أمه للكويت، أمّه التي لم تكن موجودة ولو للحظة في حياته، نقلته ليعيش شتاتا جديدا اجتماعيا وعائليا، "نور" التّي اتبعت حلمها وذهبت لمصر لتدرس الطب، فكانت القاهرة مدينة شتاتها، أما "بشير" فأكمل دراسته الجامعية بالأردن، إضافة لإبراهيم الّذي لم تسمح له ظروف عائلته الاقتصادية دراسة الموسيقى ، فدرس التّربية والتّعليم في أحد المعاهد التّابعة لوكالة الغوث بالأردن، استمر تواصله طيلة مرحلة دراسته بالمعهد مع أصدقائه عبر الرّسائل.

تعرّف على "هالة" أجمل فتاة بالمعهد، وهي التي كانت تطارد الفرص للتّحدث معه وإخباره بأنها أول مرة في حياتها ترى شاعرا حيا أمامها، وأن قصيدته التي قرأها على خشبة المسرح جميلة جدّا، كما أخبرته في رسالة أعطتها له وهو في مخرج المعهد راجعا إلى بيته نهاية الأسبوع، أنها منذ أن سمعته يقرأ "الشّعر على خشبة المسرح قررت أنه وحده لا غيره من سيكون حبيبها، في نفس اليوم ماتت عمته.

بعدها انتقلت "هالة" إلى أمريكا لدراسة الهندسة و"إبراهيم" ذهب إلى السّعودية ليعمل مدرسا في الصّحراء لمدة سنتين عاش فيهما أوقاتا صعبة جدا بسبب الأوضاع الاقتصادية للسّعودية آنذاك تزامنا مع انتشار الأمراض المستوطنة مثل الملاريا التّي حصدت أرواح الكثير من زملائه المدرسين وكذا تلاميذه، بعد مرور سنتين عاد إلى "عمّان" واشتغل صحافيا في إحدى الجرائد.

بعدها حظي بزيارات لعدة بلدان للمشاركة في مؤتمرات أدبية مثل: بيروت، بغداد، مصر، ليبيا، إضافة لجميع المدن التي سافر إليها وهو طفل من مطاره الخاص: باريس، نيويورك، روما، لندن، مدريد.

2- التّعريف بإبراهيم نصر الله:

شاعر وروائي فلسطيني من مواليد "عمّان" عام 1954م، من أبوين فلسطينيين تم تهجيرهما ككل العائلات الفلسطينية الّتي حرمت من أرضها من قرية البريج بفلسطين عام 1948م.

"إبراهيم" اليوم واحد من أبرز الكتاب العرب والأكثر تأثيرا وانتشارا لغزارة إنتاجه، حيث تتوالى الطبعات الجديدة لكتبه سنويا، إضافة لما تحظى به رواياته من إقبال للقرّاء والنّقاد العرب، كما تحظى بالترجمة إلى لغات أخرى.

تلقى "إبراهيم" تعليمه الابتدائي بمدارس وكالة الغوث للاّجئين الفلسطينيين بمخيم الوحدات بعمّان، حصل على ديبلوم في التّربية والتّعليم من معهد المعلمين التّابع لوكالة الغوث بعمان عام 1976م.

ذهب إلى السّعودية وعمل هناك مدرسا لمدة سنتين، من عام 1976م إلى 1978م، وبعدها اتجه للصّحافة، عمل بجريدة الدّستور، صحيفة صوت الشّعب، صحيفة الأفق من عام 1978 إلى عام 1996.

عمل مستشارا ثقافيا ومديرا للنشاطات الأدبيّة في مؤسسة "عبد الحميد شومان" (دار الفنون) من عام 1996م إلى غاية عام 2006م، وبعدها تفرغ للكتابة الأدبيّة.

له العديد من الأعمال الأدبيّة المتنوّعة:

الدّواوين الشّعرية:

- الخيول على مشارف المدينة 1980م.

-المطر في الدّاخل 1982م.

-الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق1984.

-نعمان يستردّ لونه 1984م.

-الفتى النّهر والجنرال1987م.

-عواصف القلب 1989م.

-حطب أخضر1991م.

-فضيحة الثّعلب 1993م.

- الأعمال الشعرية (مجلد يضم تسعة دواوين 1994م).

- شرفات الخريف 1996م.

- كتاب الموت والموتى 1997م.

- بسم الأم والابن 1999م.

- مرايا الملائكة 2001م.

- حجرة النّادي 2007م.

- لو أنني كنت مايسترو 2008م.

- عودة الياسمين إلى أهله سالما 2011م.

- على خيط نور... هنا بين ليلين 2012م.

- الحب الشّرير 2017م.

الرّوايات:

- براري الحمى 1985م.

- عو الجنرال لا ينسى كلابه 1990م.

- حارس المدينة الضّائعة 1998م.

- شرفة الهذيان 2005م.

- شرفة رجل الثّلج 2009م.

- شرفة العار 2010م.

- شرفة الهاويّة 2014م.

- حرب الكلب الثّانية 2016.

- مأساة كاتب القصة القصيرة 2020م.

الملهاة الفلسطينيّة:

هي ملحمة روائية، ولدت 1985م، يقول "إبراهيم نصر الله" في أحد الحوارات التّلفزيونيّة: "سمعت الزّعيم الصّهيوني يقول: "سيموت كبارهم وينسى صغارهم"، فبدأت أحس بخطورة أن يموت كبار السّن دون أن أسجل معهم".

فبدأ مشروع ذاتي بتسجيل شفوي مع كبار السّن، كان هدفه الأول كتابة رواية واحدة تغطي فترة 1917م دخول "الإنجليز" إلى "فلسطين" إلى عام النّكبة لأنه لم يجد رواية فلسطينية تقول ما الذي حدث وكيف كانت حياة الفلسطيني في تلك الفترة، فبدأ التفكير في كتابة رواية إلا أنه وجد فلسطين أكبر من أن تحيطها رواية واحدة، فبدأ مشروع "الملهاة الفلسطينية" مجموعة روايات كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى لكنها تغطي جانبا ما من الحياة الشّعبية الوطنّية الفلسطينية، ويمكن قراءتها مستقلة ببناء فني مستقل.

- الأمواج البريّة 1988م.
- مجرد 2 فقط 1992م.
- طيور الحذر 1996م.
- طفل الممحاة 2000م.
- زيتون الشّوارع 2002م.
- تحت شمس الضحى 2004م.
- أعراس آمنة 2004م.
- زمن الخيول البيضاء 2007م.
- قناديل ملك الجليل 2011م.
- ثلاثية الأجراس (ظلال المفاتيح- سيرة عين- ذبابة تحت شجرة عيد الميلاد) 2019.

- طفولتي حتى الآن 2022م.

كتب أخرى:

- هزائم المنتصرين.

- السّنيما بين حرية الإبداع ومنطق السّوق.

- الفن والفنان.

- ديوان شعر أحمد حلمي عبدالباقي، إعداد وتقديم.

- السيرة الطّائرة، أقل من عدو أكثر من صديق.

- صورة الوجود السّينما تتكامل.

وقد ترجمت العديد من أعماله الرّوائية إلى الإنجليزية، الإيطاليّة، الدنماركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الإيطالية.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدّمــة .....أ

الفصلُ الأوّل: الشَّتَاتُ والسِّيرَةُ فِي الأَدَبِ. **5**

أوّلا: الشّتاتُ في الأدب. 6

1. مفهوم الشّتات في اللّغة والاصطلاح: 6

أ. في اللّغة: 6

ب. في الاصْطلَاحِ: 7

2. أدبُ الشَّتات: 9

أ. مفهومُ أدبِ الشّتاتِ: 9

ب. خصائصُ أدبِ الشّتاتِ : 11

3. الشّتاتُ والمنفَى (التّداخُل والاختلافُ) : 13

ثانيّا: السّيرةُ في الأدبِ. 15

1. مفهومُ السّيرةِ في اللّغة والاصطلاحِ: 15

أ. في اللّغة: 15

ب. في الاصْطِلاحِ: 16

ت. السّيرةُ والتّرجمةُ الذّاتيةُ وأدبُ المذكّراتِ والفرقُ بينهم: 18

2. أدبُ السّيرةِ: 21

أ. مفهوم أدب السّيرة :.....22

ب. خصائصُ أدبِ السّيرةِ : 23

ت. واقعُ وحياةُ أدبِ السّيرةِ العربيِّ قديمًا وحديثًا: 25

3. أنواعُ السّيرِ في الأدبِ: 27

أ. السّيرةُ الذّاتيةُ: 27

ب. السّيرةُ الغيريّةُ: 29

4. مفهومُ روايةِ السيّرةِ الذّاتيّةِ: 31

الفصل الثّاني: تمثّلات الشّتات وبروز السّيرة في رواية "طفولتي حتّى الآن" لإبراهيم نصر الله ...33

أوّلا: تمثّلاتُ الشَّتات في الرّواية: 34

1. الشّتاتُ كنظام خِطابيّ ومعرفيّ متكاملٍ في الرّواية:.....34

2. أسئلةُ الهويّة الفلسطينيّة في الشّتاتِ: 36

أ. الهويّة الدّينيّة: 38

ب. الهويّة الاجتماعيّة: 41

ت. الهويةُ اللُّغويّة: 43

ث. الهويّة القوميّة (الوطنية): 46

3. المكانُ الأصليّ والمكانُ الطّارئ في الرّواية: 49

4. صورُ المقاومَة في الشّتَاتِ: 50

أ- مقاومة المجتمع: 51

ب- مقاومةُ الذّاتِ: 53

ت- مقاومةُ الحدثِ: 55

ثانيّا: سيرةُ الإنسانِ في الرّوايةِ : 57

1. سيرةُ "إبراهيم نصر الله"(الذّات الصّغرى): 57

2. سيرةُ الشَّخْصيَات المختلفةِ (الذّاتُ الكُبرى): 59

-سيرةُ "نور": 60

-سيرةُ أمّ إبراهيم (عائشة): 61

-سيرةُ "فَدْوى": 62

-سيرةُ والدِ "إبراهيم": 63

-سيرةُ "بشير": 64

-سيرةُ "قَاسِم": 66

-سِيرةُ "نبيل": 66

-سيرةُ جدّة "إبراهيم" (خضرة): 67

- سيرةُ جدّ "إبراهيم" : 67

-سيرةُ عمّة "إبراهيم": 68

-سيرةُ المصريّ: 68

-سيرةُ خال "إبراهيم" (محمود): 68

-سيرةُ الأستاذ "سليم" (أب بشير): 69

-سيرةُ "هالة": 69

-سيرةُ عاملِ المكتبةِ: 70

3. سيرةُ الشّعبِ الفلسطينيّ (الذّات الكلّية): 70

4. سيرةُ المكانِ الحاضرِ والمكانِ الغائبِ : 73

خاتمة **74**

المصادر والمراجع **74**

الملاحق **74**

فهرس المحتويات **74**

ملخص:

تسعى هذه الدّراسة إلى كشف تمثّلات الشّتات وسيرة الإنسان في رواية "طفولتي حتى الآن لـ إبراهيم نصر الله "، والتّي حاولنا من خلالها الخوض في موضوع الشّتات والسّيرة، وكيف رسم الشتات سيرة الفلسطيني، الذي سار وآلامه، محاولا بناء حياة جديدة توثّق هويته وتطلّعه للعودة واسترجاع وطنه المفقود.

الكلمات المفتاحية: الشّتات- السيّرة- الإنسان.